مكتبة العقائد
(٦)

الرد على المشركين

تأليف
محمد عبد المنعم خفاجي

الناشر
دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع
عمارة رمسيس - ميدان رمسيس (باب الحديد) القاهرة
١٩٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

١ — قل أغير الله أتخذ ولياً ؟

فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين .

آية ١٤ سورة الأنعام

٢ — قل أى شىء أكبر شهادة عند الله ؟

قل الله شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ .

أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد

قل : إنما هو إله واحد

وإننى برىء مما تشركون آية ١٩ سورة الأنعام

* * *

ماذا يمكن أن تؤول إليه مصائر الإنسانية لو أن العالم عاد إلى الشرك القديم الذى حاربته الرسل والديانات والشرائع ؟

وماذا تؤول إليه أمور الحياة من فوضى وهمجية ووحشية لو أن عقيدة الشرك أصبح لها السيطرة على الأمم والشعوب .

ونحن لا نعنى بالشرك هنا عبادة الأصنام والأوثان

والكواكب والشمس والقمر والنجوم .، وإنما نريد به مظهراً جديداً خطيراً من مظاهر الشرك أدتنا إليه الحياة الحاضرة ، وهو عبادة الإلحاد والمادية دون الله عز وجل..وعبادة زعماء هذه المادية الطاغية من أمثال : انجلز وماركس ولينين وستالين .

إن المذاهب التى تعرفها الإنسانية هى مذاهب مثلى تدعو إلى السلام والحب والإخاء والتعاون ، ولا تحتقر إنساناً فى كرامته أو عقيدته ، أما المادية الشيوعية الجدلية التى يدعو إليها إخواننا الشيوعيون المحليون فتفرض فيك أنك عدو لها حتى تتبعها ،وتحقر ديانتك حتى تؤمن بها ..

وأنت إذا جلست مع أحد الشيوعيين المحليين لا يلبث أن يفاجئك بأن الدين الإسلامى دين العصور الوسطى ، وأنه دين رجعى ، وأن محمداً كان مفكراً لا نبياً ، وأن أفكار الإسلام كلها تنبع من معين الرجعية والجمود ، وأن دين العصر الجديد هو الشيوعية ، وكتابه الحكيم هو « رأس المال » ، وأن نبيه هو هذا اليهودى الأثيم ماركس .. وسوى ذلك من مزاعمهم الأفنة ، وترهاتهم الباطلة ، وجناياتهم الأثيمة .

وقد وصلتنا هذه العدوى الأثيمة مع ما وصلنا من أباطيل الغرب وأكاذيبه وآثامه ، واستهوت هذه الضلالات فريقاً من إخواننا فى الوطن والعروبة والدين ، فلاكتها ألسنتهم ، ورددتها أفواههم ، دون أن يعرفوا لها معنى ولا محصولا ، ودون أن يدركوا خطر مثل هذه الدعوة التى تتنكر لشرائع الله وكتبه

ودياناته ورسله جملة ، وتكفر بالله واليوم الآخر ، وتحاول أن تربى شباب العالم من جديد على معاداة الأديان بما تدعو إليه من مثل ومبادىء شريفة

ولا يجد هؤلاء الشيوعيون المحليون منطقاً أقوى فى رأيهم من أن « الشيوعية » وصلت إلى الفضاء وطافت أقمارها الصناعية فوق الأرض . . وكأنما يريدون أن نفهم ان القوة هى الحق وهى الدين وهى كل شىء فى الحياة .

فإلى هؤلاء أسوق الحديث فى هذا الكتاب ، الذى توضح فصوله أهمية الإسلام وخطره فى التفكير الإنسانى ، وأنه رسالة سماوية نزل بها ملك من السماء على محمد بن عبد الله ؛ وتوضح كذلك أننا لا يمكن أن نترك عقيدتنا الصالحة ، وديننا الأمثل ؛ ونستعيض بها أفكاراً مخربة أتى بها انجلز وماركس ولينين وستالين ، وسواهم من طواغيت الشرك والضلال . .

وما توفيقى إلا بالله ..

بين يدى هذا الكتاب

سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن . وإن أنتم إلا تخرصون — قرآن كريم — الأنعام آية ١٤٨ .

— ١ —

هذا هو المنطق العجيب لمشركى اليوم ، لدعاة مذاهب الضلال والتبعية والاستعباد ؛ للذين يريدون أن يجعلونا آلة صماء فى يد موسكو وزعمائها وأفكارها ..

يقولون: إن أفكارنا أرادها الله والحياة أو على وجه أصح أرادها التطور . لأنهم جعلوه إلههم . وكذبوا ، كما كذب المشركون من قبلهم ، وقد أهلك الله الأمم المشركة من قبل فبادوا وهلكوا ، ولا بد من أن يهلك الله دعاة الشرك والإلحاد فى عالم اليوم ، كما هلك أسلافهم .

لقد أغرق الله قوم نوح بالطوفان ، وأرسل على عاد ريحاً صرصراً عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، وأرسل حاصباً على آل لوط ، وأهلك آل ثمود بصيحة . كل هذه الآيات فاجأت تلك الأمم ، ولم يطل انتظارهم إياها من قبل .

وأين هذا من الرعب المستولى على العالم جميعه الآن ، حيث لا يعرف أحد عاقبة ما تصل إليه ويلات الحروب ، ولا يعرف هل يكون له مدى من العمر يستمتع فيه بأهله وزوجه وأولاده وأصحابه ، أو يختطف فى لحظة من اللحظات ، فى البر أو فى البحر ، أو من صاعقة السماء أو من خسف الأرض ؟! وهذا الرعب تصاحبه صواعق القذائف ، من الجو ، ومن الأرض ، ومن البحر ، ويصاحبه الحرق والغرق . وقذائف الطائرات لا ترحم طفلا فى مهده ، ولا مريضاً فى سريره ، ولا ناسكا فى معبده ، ولا عالماً فى معهده ، ولا مقعداً ولا شيخاً فانياً . وأين هذا من فعل القنابل الذرية والهيدروجينية والصاروخية والنيوترون وسواها .

لا شبهة فى أن هذا كله إنما هو جزاء ما اقترف الناس من الشرور ، من إلحاد وكفر ، وفسوق وعصيان ، وافتتان فى الشهوات ، وجزاء الأثرة والإعراض عن استغاثة الضعفاء والمظلومين من هول ما يلقونه من الأقوياء والظالمين ؛ وجزاء تسخير الأقوياء الأمم الضعيفة وعدها أنعاماً سائمة ترعى ثم تستمتع بخيراتها على ألوان من المتاع لم يكن يعرفها الناس من قبل هذه المدنية المارقة

الفاجرة ، التى أغرق أهلها فى الشهوات ، وأغرقوا فى الإشادة بها والدعوة إليها .

ولنتدبر قول الله سبحانه : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين . وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون . حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ».

إن الإيمان بأن محمداً صلى الله عليه وسلم يدعو هو ومن اتبعه إلى الله على بصيرة ، قاض بإجابة تلك الدعوة والعمل بها . وهى قاضية بالإقلاع عن الشرور والمعاصى ، والتزام حدود الله ، والاتعاظ بما قصه الله سبحانه من سير الأولين ، والتدبر فى عاقبة ما حل بالأمم جزاء ما اقترفته ؛ فقد آن للمؤمنين أن يتدبروا ، وآن للأمم أن تعتبر وتتعظ ، وآن لهم أن يؤمنوا بأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فقد حل بأسه ، وسينجى الذين اتقوا ، وستكون لهم دار الآخرة ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون ؟ !

ولكن لا يأس من روح الله ؛ فقد آن للمسلمين أن يستعدوا لحمل نصيب وافر من مدنية فاضلة روحية تختلف عن هذه المدنية الفاسدة التى جعلت العالم أتوناً، وساقت إلى ذلك الأتون أبناءها طعاماً

ووقوداً ، وآن لنا أن نفكر فى حياة عزيزة يصفو لنا فيها العيش ، فنستمتع بثمرات جهودنا ، ونضرب فى العلم بسهم ، وننصر مدنية فاضلة ، وآن أن نجاهد فى سبيل هذا لا نريد ظلماً ولا نريد عدواناً «ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور» .

لكن هذا لا يكون إلا إذا غيرنا أحوالنا : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» . ونحن لم نذل عن قلة ؛ نحن كثير ولكنا كغثاء السيل ، لكنا مع هذا نستطيع أن نضع أمام أعيننا قبلة نولى وجوهنا إليها ، وأن نضع أمامنا هدفاً نسعى إليه ؛ وإذا كنا ضعافاً فنحن نقوى بالاتحاد ، ونقوى بالتناصر ؛ ولسنا بأضعف من موسى وقومه أمام فرعون وملئه ؛ وقد قال الله تعالى : «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون» .

ونقول لمشركى اليوم من عباد الإلحاد والشرك والكفر بالله ، ومروجى مبادىء الضلال وحرب أديان الله ورسالاته : إنكم لا تستندون فى مزاعمكم الباطلة إلى علم صحيح ، ولا إلى رأى ناضج ، ولا إلى أفكار سليمة ، إن تتبعون إلا الأباطيل والضلال والظنون والأوهام ، وإن أنتم إلا تكذبون على الحقيقة وعلى الناس وعلى الله وملائكته ، وسوف تلقون جزاء ما كنتم تفترون . . .

الفصل الأول

ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم
ولا ينفعهم ، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عندالله ،
قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى
الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون . . . .
١٨ سورة يونس .

الاسلام أول وثيقة لحقوق الانسان

« قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، دينا قيما ، ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » .

صدق الله العظيم

منذ قرن ونصف من الزمان ، قامت الثورة الفرنسية ، وأذاعت فى أوربا والعالم كله ، مبادىء الحرية والإخاء والمساواة . . وقام على أساس هذه المبادىء عهد جديد فى تاريخ الإنسانية ، هتف به رجال الفكر ، وأشاد به المصلحون فى كل مكان ، ونسبوا كل فضل فيه إلى فرنسا مهد الحرية والنور . ويعلم الله أنهم كانوا فى ذلك أغراراً وأنهم نسوا الإسلام ومبادئه الخالدة التى كانت أول لبنة فى صرح الحضارة الإنسانية .

ولقد هال الناس ولا يزال يهولهم ، هذا الفرق الشاسع بين هذه المبادىء الحلوة الجميلة ، التى طبقها الغرب فى العالم ، فكانت شراً وبلاءً واستعماراً مخيفاً ، وقتلا للحريات والشعوب ، وبين مبادىء الإسلام السمحة الكريمة ، التى قامت عليها دول ، نشرت العلم والحضارة والنور والحرية والإخاء فى العالم كله ، وأنقذت الدنيا من ظلمات العصور الجاهلية ، ورفعت قدر الفكر الإنسانى

ونقلت تراث الأقدمين وحفظته وخلدته وأذاعته ، واقتبس الغرب كل مقومات حضارته وعمرانه وحياته من تاريخها ومبادئها وأفكارها وثقافاتها وحضاراتها الزاهية المشرقة .

ومضت السنون متتابعة ، ووقعت الحرب العالمية الأولى ، وقامت عصبة الأمم تؤكد فى مبادئها الحريات العامة ، وحقوق الإنسان . ولكن عصبة الأمم فشلت فى رسالتها ، وتنكر أعضاؤها لمبادئها ولحريات الأمم والشعوب والجماعات . وحدثت الحرب العالمية الثانية ، التى كادت تودى بمقومات الحياة والحضارة : والتى عصفت بكل معانى الإنسانية .

وبعد أن هدأت نيران هذه الحرب الضروس ، قام المفكرون فى أوربا وأمريكا ، يدعون إلى مبادىء جديدة ، وينادون بضرورة الدفاع عن الحريات الإنسانية ، وحقوق الإنسان فى الحياة . ولا ننسى صيحة « روبرت لى همبر » عام ١٩٤٥ فى أمريكا ودعوته إلى إقامة اتحاد عالمى ، لتسود الديمقراطية المجتمع الدولى كله ، على أساس من حرية الأمم والأفراد ، ويكون الناس جميعاً رعية هذا المجتمع العالمى ، الذى يجب أن تقوم حكومته على القانون لا على المعاهدات ، لأن عصر المعاهدات قد مضى وحل محله عصر القانون .

وقامت هيئة الأمم المتحدة التى نص فى صدر ميثاقها على ما يأتى: نحن شعوب الأمم المتحدة ، وقد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التى جلبت فى خلال جيل واحد

مرتين على الإنسانية أحزاناً يعجز عنها الوصف . وأن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره ، وبما للرجال والنساء ، والأمم كبيرها وصغيرها ، من حقوق متساوية ، وأن ندفع بالرقى الاجتماعى قدماً ، وأن نرفع مستوى الحياة فى جو من الحرية أفسح .. وفى سبيل هذه الغايات اعتزمنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح ، وأن نعيش معاً فى سلام وحسن جوار ، وأن نضم قوانا كى نحتفظ بالسلم والأمن الدولى ، وأن نستخدم الآلات الدولية فى ترقية الشئون الاقتصادية والاجتماعية للشعوب جميعها ... وقد قررنا أن نوحد جهودنا لتحقيق هذه الأغراض ... » .

وقامت على أساس ميثاق هيئة الأمم المتحدة فروع رئيسية لهيئة الأمم ، هى : الجمعية العامة ، ومجلس الأمن ، ومجلس الوصاية ومحكمة العدل الدولية ، والمجلس الاقتصادى والاجتماعى .

وفى ديسمبر ١٩٤٩ أقرت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، وأذيع فى كل مكان ..

ومن العجب العجيب ، أن هذه المبادىء حين يبحثها الباحث ، يجد أنها فى نصوصها وأهدافها ، لا تخرج عن مبادىء الإسلام الكريم ، ونصوصه المأثورة التى تروى عن رسوله ودعاته وأعلامه ومفكريه .

على أنه ليس الإعلان الحاضر أول وثيقة لحقوق الإنسان فهو لم ينفك عن السعى والصراع فى سبيل نوال هذه الحقوق . والتاريخ

يسجل محاولات كثيرة قام بها أنبياء وفلاسفة ورجال حكم ومشرعون . فلم يبخلوا براحتهم ودمائهم لكى يخففوا عن كاهل الشعوب وطأة الطغيان والفقر والجهل والتعصب . وإننا لا نقيس أعمالهم بمقياس الفشل والنجاح ، بل بمقياس الذين حاولوا إدخاله إلى مجتمعاتهم . وإذا قيس هذا البيان بالبيانات الأخرى فى نوعه . فالبيانات السابقة من العهد الأعظم ١٢١٥ ، إلى ١٦٧٩ ، إلى وثيقة الاستقلال الأمريكى ١٧٧٦ ، إلى إعلان حقوق الإنسان والمواطن ١٧٨٩ تلتقى عند نقطة واحدة هى أنها جاءت تعبيراً عن ضمير أمة فى مرحلة من مراحل حياتها ، وتتفق فى طلب الحرية والمساواة ، ورفض الاستبداد والاستعباد والامتيازات .

إن الإسلام كان أول وأعظم وثيقة سماوية حملت حقوق الإنسان ودافعت عنها ، وأعلنت حمايتها له ..

مثلنـــا الأعلى

ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ، فلا يغررك تقلبهم فى البلاد — ٤ غافر

جمع الإسلام وكتابه الحكيم شتى أصول التقدم الأدبى والروحى والمادى والاجتماعى ، ودعا إلى مختلف المقومات العالية لمدنية فاضلة كريمة مهذبة ، غايتها سعادة الفرد والجماعة والأمم والإنسانية ، وأحكام الإسلام وآدابه هى نمط رفيع للمثل العليا التى سعدت بها البشرية ، واستقامت بها حال الاجتماع ، وفاءت إلى ظلها الظليل الشعوب .

ولقد كان نزول القرآن على محمد بن عبد الله حدثاً فكرياً ودينياً وإنسانياً خطيراً ، فقد قلب الأوضاع ، وبدل النظم ، وغير مجرى الحياة ، وقضى على ما توورث من جهل وحمق وسفه ووحشية وضلال وطغيان وبهتان ، وأحال ذلك كله حضارة وعلماً وأدباً وديمقراطية صحيحة ، واشتراكية عادلة وأمناً وحرية وسلاماً ورفاهية فى كل مكان .

خفقت الراية الإسلامية على شعوب كثيرة ذات حضارات قديمة ، وعلى أمم بدائية لم تعرف نواميس التقدم والرقى من قبل فوحد الشمل وبدد الفرقة وساوى بين هذه وتلك ، وحارب التفرقة العنصرية الكاذبة ، وقاد الجميع بكلمة الله إلى حيث العمل

والنظام والاتحاد والجهاد لأداء رسالة الدين ، والتبشير بحياة فاضلة بين الناس . وصارت العربية هى لغة العالم الجديد ، والقرآن دستور الحياة فى هذه الرقعة الشاسعة من الأرض ، والإسلام هو عقيدة الجماعات والطوائف والأفراد . جاء الإسلام يبشر الجماعات والشعوب بحرياتها ، ويدعو إلى أكرم ما فى الحياة من مبادىء ، وإلى أسمى ما تتطلع إليه الإنسانية من مثل وغايات وأهداف ، ويشرع شرائع للسلام لم يشرعها من قبل ولا من بعد مذهب من المذاهب ، ولا عقيدة من العقائد .

كفل ديننا الخالد الحريات ، وهدم الفروق الظالمة بين الناس ، وسوى بينهم فى الحقوق والواجبات ، وجعل الرئيس والمرءوس مسئولين عن أعمالهما ، ووسع باب العدالة حتى لا تنتهى فيه عند حد . ولم يستثن من أحكامها إنساناً ولا طائفة ، ولم يقف فى طريقها حتى اعتبارات الفتح والغلبة والسيادة .. يقول عمر من وصيته للخليفة من بعده : اجعل الناس عندك سواء : لا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة ، فيما ولاك الله . . والحكم فى الإسلام أساسه مشيئة الشعوب وإرادتها ، ورعاية حقوق الإنسان فى الحياة والحرية والكرامة والعيش ؛ وإطلاقه للحريات إلى أبعد مدى معروف ، لحرية الفكر والرأى ، وحرية التصرف والعمل ، والحرية الشخصية ، والحريات العامة ، وحرية الإنسان فى مسكنه وفى اختيار لون الثقافة التى يريدها لنفسه ولأبنائه ، والحرية السياسية ،

كل هذه الحريات قد قررها وحماها الإسلام وكتابه الحكيم :
وليس للحاكم — فى شريعة محمد بن عبد الله — طاعة مفروضة إلا فى حدود القوانين والدين ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وعلى الشعب أن يقومه إن زاغ ، ولذلك قال عمر : « من رأى منكم اعوجاجاً فليقومه » وقال : « إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقومونى »

ولنشر السلام فى الأرض دعا الإسلام إلى المساواة الكاملة بين الناس جميعاً : الصغير والكبير ، والمحكوم والحاكم ؛ والفقراء والأغنياء ، وبين جميع الطبقات والجماعات ؛ وهى مساواة لاتعرف معنى للعصبيات والأجناس والألوان ، حتى لقد كان الخليفة عمر يمشى وعبده راكب ، وولى رسول الله بلالا على المدينة وفيها سادة المسلمين من الأنصار والمهاجرين ، وأبطل الإسلام التفاخر بالأحساب والأنساب والأموال ، وجعل العمل وحده هو محور التفضيل والإكرام : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولذلك ألغى الإسلام الفوارق والامتيازات ، ودعا إلى عدالة اجتماعية حكيمة مبنية على الأخوة والتكافل العام بين الأفراد والجماعات ، عدالة أساسها التحرر الوجدانى والضمير البشرى الحى والتشريع الإسلامى المحكم .

ويقرر الإسلام أن أصل الناس واحد ، وأنهم أخوة فى

الإنسانية وأن علاقات الأمم بعضها ببعض يجب أن تبنى على السلام والمحبة والتعاون فى الأرض ، ولذلك حارب الاستعمار والاستغلال والطغيان والفساد ، وحرم شن الحرب للسيطرة والنفوذ والسلطان ، ودعا إلى الرحمة والخير والإيثار والإخاء والمحبة بين الناس ، وحطم الشرك والوثنية حتى لا يستعبد أحد أحداً فى الأرض ، وألغى الرق البشرى ، وهدم عروش الطغيان والجبروت ، واعترف بحقوق الفرد الأساسية ، ورعى حقه فى العيش وفى التأمين الاجتماعى ، وفى المنزلة الأدبية ، حتى لا يوجد شىء يعكر أسباب السلام بين الناس .

والإسلام كذلك دين الديمقراطية الصحيحة التى ترتكز على أصول قوية ، ودعامات ومبادىء مثلى ؛ فهى تؤمن بمبدأ حكم القانون ، وبأن حكم الشعب للشعب ، وبأن الحكومة وجدت لخدمة الشعب والعمل على رفاهيته ، وتؤمن كذلك بروح التسامح والحرية الاجتماعية وحرية الرأى للأفراد والجماعات ، وبالحرية الاقتصادية التى تهدف إلى تحقيق الرفاهية للناس كافة ، والتى تؤدى التزاماتها كذلك للفقراء وللمجتمع والدولة ، ثم هى تحارب كل لون من ألوان التمييز بين الناس .

وأقام الإسلام كذلك أصوله على اشتراكية مثلى ، دعامتها العدل والتعاطف والتكافل والمحبة بين الناس ، والإيثار والتضحية وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد ، والألم لشقاء الناس ،

وبذل مافى اليد ومساعدة كل محتاج ، اشتراكية لا تدع لذى ألم ألماً ، ولا لذى حاجة حاجة ، ولا لذى كربة كربة ، اشتراكية يرعاها الله ورسوله وشريعته ، ويدعو اليها الضمير الإنسانى ، وهى من الناحية الاقتصادية تنزع إلى مقاومة الاستغلال فى مختلف ألوانه ، ومن الناحية السياسية تدعو إلى الشورى والإخاء بين الناس ، ومن الناحية الاجتماعية تقاوم الفقر وتجعل الغنى وظيفة اجتماعية تناط به حقوق والتزامات ، ومن حيث الوسائل تنكر الثورة والتمرد وصراع الطبقات ، وتحرص على الأمن والسلام بين الناس . ولا تجعل الملكية وسيلة للامتياز والتفاوت بين الناس ، وغايتها إشاعة الخير والرفاهية بين بنى البشر عامة ، وحماية حقوق الإنسان والعامل والمرأة وتقرير التأمين الاجتماعى للفقراء والمعوزين ، وفرض الزكاة ضريبة يخصص إيرادها لمحاربة الفقر وسد حاجة المنكوبين من الناس ، وتحريم الربا والاستغلال والاحتكار فى شتى صوره ، ورفع شأن العامل وفتح أبواب العمل أمامه والحض على العمل وعلى إيجاده للعاطلين : بما يشرعه الإسلام من نظم اقتصادية سليمة ، كالمزارعة والمساقاة والمضاربة والشركة والإجارة وعقد العمل وسوى ذلك ، ومن ثم حرم ديننا الترف والإسراف وحد من غلواء الرأسمالية . وكره التمييز بالتفاوت المادى بين الناس ، وأوصى بالصدقة والإحسان وفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم من الأثرياء أو القادرين على الكسب ، وشرع نظام الوصية والقرض والوديعة والإعارة

والهبة وفريضة الميراث . وأوصى بالتكافل الاجتماعى بين المسلمين عامة .

وهكذا نجد أصول الإسلام ومقومات شريعته ودعائم ميراثه الروحى ، تنزع نحو حماية الحريات وإشاعة السلام والخير بين الناس ، وتجعل من هذه الأصول الكريمة أساساً لحضارة إسلامية مشرقة ، ومدنية روحية مزدهرة ، قامت ونمت وترعرعت فى الأرض ، واجتمعت عليها الأمم والشعوب متعاونة متحدة يسودها العدل والأمن والطمأنينة والنور والعلم ؛ والإخلاص لله ولرسالة الإسلام السامية الخالدة .

فأين هذا من صنع الحضارات المادية السائدة فى عالم اليوم ، ومن آثام المدنية الغربية المجللة بالخزى والعار والكراهية على أرض الشرق ؟ أين هذه الأصول السمحة العالية الكريمة من الأصول التى تبنى عليها دول الغرب وروسيا سياستها المدمرة المخربة فى الجزائر وكينيا وفلسطين وفى كل إقليم وطئه الاستعمار الخبيث الذى يهدم صروح الحرية والسلام فى كل مكان ؟

إن الإنسان الذى يعيش اليوم فى غمار مدنية القرن العشرين لأولى به أن يرجع إلى حياة الغابة من أن يعيش فى ظلال القلق والخوف والطغيان والدماء . .

وإن المدنية التى ترفرف على شعوب العالم الآن لحرى بها أن

أن تنكس الأعلام خزياً وخياء من أن تنصب إلى المدنية الفاضلة وإشفاقاً من أن توازن بمدنية المسلمين التى شملت العالم كله حقباً من الزمن فشمله الخير والنور والسلام ، وسعدت بها أمم كانت ترسف فى قيود الطغاة ، فاستعادت حريتها ، وعاشت تكافح من أجل رفاهية البشر وتقدمهم ، ونشر رسالة الله والإسلام بين الناس .

دعوة إلى السلام العالمى

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل
على الله » آية ٦١ سورة الأنفال

قال صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

ويقول الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ، بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير » .

إن الإسلام دعوة إلى الأخوة الإنسانية العامة ، وإلى الزمالة

البشرية المشتركة ، وإلى وحدة الأديان والعقائد .. وهو دعوة إنسانية عالية إلى السلام العالمى المنشود .

أو ليس هو هادى البشر للسعادة الأبدية، و من دعا إلى الديمقراطية الصحيحة ، وقرر الحكم الشورى ، وهدى الإنسانية بعد الشرك والوثنية ، والضلال والهمجية والوحشية ، وأنقذها من الاستعباد والظلم والهوان والمذلة .

رفع أيدى الحكام عن الشعب وأمواله ، حتى لقد قال محمد صلوات الله عليه لابن اللتبية وقد استعمله على صدقات بنى سليم ، فلما جاء إلى النبى وحاسبه فقال « هذا الذى لكم ، وهذه هدية أهديت لى » : هلا جلست فى بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا ؟ وفى بقية الحديث : أنه قام فخطب الناس ، ونهى عن مثل هذا وتوعد عليه .

وساوى الفقير بالغنى ، والصغير بالكبير ، والمحكوم بالحاكم ، والمرأة بالرجل والأعجمى بالعربى ، والوضيع بالشريف ، ولقد قال لفاطمة بنت محمد : يافاطمة ، إنى والله لا أغنى عنك من الله شيئا » .

إن الخير كل الخير فى أن تؤخذ تعاليم محمد بغير تنقيح أو تعديل ، وأن تطبق تطبيقاً صحيحاً ، كما هى ، لتسعد البشرية ، ويستقر السلام العالمى المنشود ، فالعالم لن يحيا من موته إلا إذا أخذ بتعاليم الإسلام ، والتى لا بد أن ينتهى إليها فى يوم من الأيام ؛ كما يقول برنارد شو الفيلسوف الإنجليزى العظيم ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق

وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق . أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ .

إن الإسلام أسس امبراطورية ، ولكن أية امبراطورية هى؟ وشيد حضارة ، ولكن أية حضارة هذه الحضارة ؟ وهو دين عام ، ولكن أى دين وشريعة هو ؟ « فأقم وجهك للدين القيم ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

حرية وعدالة ، وإخاء ، وعلم وثقافة ، وشعور بالمسئولية ، وتربية للوجدان والمشاعر ، وإرهاف للادراك والأذواق والفطر الإنسانية السليمة ، ومؤاخاة للعقل لا حد لها .

إن الإنسانية لابد أن تتأدى إلى هذه الشريعة وفق ناموس التدرج والارتقاء ، وإن أصولها العامة لابد أن تذيع فى العالم ، «أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها ، وإليه يرجعون ؟ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

إن الغرب تعلم عن الإسلام كيف يرفع بصره إلى السماء ، وكيف يدرك أن انتصار العقل المادى لا قيمة له ، إلا إذا اقترن بانتصار العاطفة والروح ، واتجه وجهة إنسانية لمصلحة الفرد وخير المجموع البشرى . . وأخذ عنه ميراث الحضارة .

ولكنه لم يأخذ عنه النزعات الصوفية ، ولا الجوانب الروحية ؛ التى تتجه بالمدنية وجهة الحق والخير والعدل والجمال والكمال الروحى.

لقد بلغ الغرب أوج التقدم العقلى والمادى ، ولكن ما زالت عواطفه متبلدة وأرواحه هائمة حائرة .

إن الكمال الروحى الذى كان بالأمس مثل الشرق الأعلى ، قد أصبح اليوم قبلة طائفة كبيرة من الغربيين ؛ تحاول أن تدمجه فى عقيدة القوة والتقدم المادى ، لتؤلف من المزيج مثلا إنسانيا أعلى.

ولكن مهمة التوفيق هذه يجب أن تكون رسالة الشرق الجديد لتحقيق الرسالة الإنسانية الكبرى . بالجمع بين حضارة الغرب والشرق ، بين العلم والعاطفة ، بين العقل ونزعة التأمل ، بين الفكر التجريبى والفكر الصوفى ، بين قوى الذهن المادى المبتكر وقوى الروح النبيل ، الساعى لتحويل جهود الذهن لخير البشرية جمعاء .

الأصل الأول للإسلام

« وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » -١٣ سورة لقمان .

الحضارة فى مذاهب المفكرين يقصد بها هذه المنزلة العالية ، التى تبلغها بعض الأمم من الرقى العام ، والنشاط الفكرى الخصب ، والحرية الكاملة بأوسع معانيها .

وبقدر منزلة الأمة من الحضارة تكون مكانتها بين الدول والشعوب ، فالحضارة هى غاية ما يبلغه الإنسان . وهى المثل الأعلى للجماعات ونهاية المطاف فى تاريخ الإنسانية .

وفى وسع الإنسان أن يخلق لنفسه ولمجتمعه ألواناً من الحضارة يتمتع بها ويعيش فى ظلها . ولذلك وجدت الحضارات القديمة من غابر الأجيال ، ولكن لا يمكن أن توجد شتى ألوان الحضارة فى عصر واحد ، لأن الحضارة متجددة بتجدد العصور وتطور الإنسانية فى مدارج الكشف والابتكار . والذين يعيشون الآن يخالون من سبقوهم من أهل القرن الماضى بدائيين أو شبه بدائيين .

كانت الحضارات القديمة تقوم على المادة والاستعباد والفوارق الكبيرة بين الطبقات ، فلم يظهر أثر الشخصية الإنسانية أو الطابع الشخصى والفكرة الذاتية وحرية الخلق والابتكار .

أما الحضارة الإسلامية فقامت على أسس رفيعة من المثل العليا ، والآداب والمبادىء القويمة ، فجمعت بين المادة والروح ، والدنيا والآخرة .

وفى عهد الثورة الفرنسية كانت الحرية والإخاء والمساواة ، أنشودة الأمم الساعية فى مواكب التقدم إلى المجد والحضارة .

ونحن الآن نسمع الآراء المتباينة عن الأسس الأولى التى تقوم عليها الحضارة الإنسانية ، أتقوم على المال أم على العلم أم على الحرية ، أم على البواعث الرفيعة التى تدفع الإنسان إلى الخلق والابتكار ؟ ، ولكن الإسلام يجعل أساس الحضارة هو الشعور بالمسئولية . شعور الفرد بواجبه والمجتمع بمهمته فى الحياة ، والأمة برسالتها فى خدمة البشرية كافة .

فشعور الفرد بمسئوليته يحفزه إلى العمل لخير نفسه وأسرته والمجتمع الذى يعيش فيه والأمة التى هو مدين لها .

وشعور المجتمع بمسئوليته يدعو إلى الإصلاح والتجديد والنشاط المستمر ، والعمل على رفاهية الشعب وخير الوطن ومستقبله ، فيحارب الجهل والفقر والمرض والخوف والاستعباد ، ويعمل على نشر الطمأنينة والأمن والسلام والحرية والكرامة .

وشعور الزعماء بمسئوليتهم يدعوهم إلى الجهاد فى سبيل تقدم الشعب وحريته ، ورفع منزلته بين الجماعات الإنسانية العاملة فى ميدان الحياة .

وشعور الأمة بمسئوليتها يدعو إلى المحافظة على حريتها والذود عن كرامتها، والحرص على أمنها وسلامتها، والعمل الجاد فى سبيل رفاهيتها وعزتها ومجدها، لتسير إلى الحياة الكريمة مع السائرين فى مواكب الإنسانية والحضارة، ولتدعم مكانتها بين الشعوب الحية العظيمة. ولتؤدى رسالتها الكاملة فى الحياة.

الشعور بالمسئولية هو الفارق بين الشعوب المتأخرة والشعوب الحية المتحضرة، وهو أهم عنصر فى الديانات والشرائع والقوانين، وأول عامل على حفظ نظام الحياة وعلى بلوغ الإنسانية والحضارة أهدافها الصحيحة، وبحق هو أساس الحضارة.

ويشتد شعور الرجل بالمسئولية كلما عظمت رسالته فى الحياة، فالأنبياء والمفكرون والزعماء والمصلحون، هم أكثر الناس جهاداً ونضالا فى سبيل أداء ما حملوه من مسئوليات جسام وتبعات كبيرة.

وكلما عظم إيمان الإنسان بدين أو مبدأ أو فكرة كان أكثر شعوراً بمسئوليته، وأسرع عملا من أجلها وأكبر نشاطاً فى سبيل أداء الأمانة التى حملها.

فلنستمد الشعور بالإنسانية من حرارة الإيمان وقوة العقيدة، ومن مبادئنا القويمة التى نؤمن بها، ونعمل لها، ونضحى فى سبيلها بكل شيء.

ولنرب الشعور بالمسئولية فى التلميذ والشاب والرجل والمرأة، والعامل والتاجر والصانع والزارع، والموظف، والكبير

والصغير والغنى والفقير والرئيس والمرؤوس ، فذلك هو السبيل إلى المجد وعظمة الحياة وخلودها .

ولنمض فى طريقنا ، تدفعنا قوة العزيمة وحرارة العقيدة وسمو الهدف وجلال الغاية ، متمثلين قول رسولنا الكريم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وقول الله عز وجل « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وحملها الإنسان » . .

الفصل الثاني

« ربنا رب السموات والأرض ، لن ندعو
من دونه إلها ، لقد قلنا إذا شططا » .

(١٤ سورة الكهف)

القرآن كتاب الله

ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين

إن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد . وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة . والتشابه فى البراعة ، على هذا الطول وعلى هذا القدر . وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظه قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحياناً الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف . وقد جاء القرآن ، على كثرته وطوله ، متناسباً فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » .. « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » .

وبعد فإنك تجد فى كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك فى منظر بهيج ، ومعرض رشيق ، ونظم أنيق ، غيرمتعاص

على الأسماع ، ولا ملتو على الأفهام ، ولا مستكره فى اللفظ ، يمر كما يمر السهم ، ويضىء كما يضىء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، طموح العباب ، جموح على الطارق المنتاب ، كالروح فى البدن ، والنور المسيطر فى الأفق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل حكيم حميد » .

ولقد كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر ، تحبها وتعشقها وتجيدها ، وترفع من منزلة الشاعر المفلق والخطيب البليغ ، وتتوه بهما . وكانت أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وأديباً ، فإذا نبغ فى القبيلة شاعر ، أو ظهر فيها فصيح ، استبشرت وافتخرت،وأقامت الموائد،واحتفلت بذلك الشىء العظيم ، وأتت القبائل الأخرى فهنأتها وباركت شاعرها أو خطيبها .

كان ذلك فطرتها ، لحياة التأمل والاستغراق والخيال فى الصحراء ، وللفراغ الكثير الذى كانوا فيه ، ولحياة البادية التى تثير العاطفة وتستفز المشاعر ، وتلهم الشاعرية ، وتوقظ الخيال والبلاغة ، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة ، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون .

ومن ثم فقد رأينا شعراء يلقى إليهم العرب القياد : يصغون لقولهم ، ويسيرون وفق رأيهم ، ويمضون ما يحكمون به بينهم . يضعون الشريف النابه ، ويرفعون الخامل الوضيع . فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيما ، وكان النابغة سفيراً للعرب فى قصور

المناذرة والغساسنة ، وحكماً بين الشعراء فى سوق عكاظ ، وكان الأعشى يغير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب ، ويفد على كسرى وملوك الحيرة وبنى غسان ، ويسافر إلى الحبشة ، وكان قس بن ساعدة الإيادى الخطيب يفد على قيصر والغسانيين ، إلى ماسوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلغاء ، والشعر والشعراء .. وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب ، ويضع الهدنة فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه .

فلما بعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسالته إلى الناس كافة ، نزل عليه كتاب مطهر من السماء ، هدى ونور وبشرى فيه دعوة إلى التوحيد ، والطهر والخير والحق ، وفيه ماشاء الله أن يبلغه البشر ، من شئون الحياة ، وأخبار الأمم . وقصص دعاة التوحيد : من المرسلين والأنبياء ، وفيه كل ما يسعدالناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم : من تشريع ، وعبادات ، وأخلاق ، وفضائل، وآداب ، وتوجيه كامل إلى المثل العليا .

نزل هذا الكتاب الكريم . والنور الخالد . والوحى الصادق والدستور العظيم . فكان فى أعلى درجات البلاغة . ومنازل الفصاحة . لا يدانيه بيان . ولا يشابهه أو يقاربه ماكان عندالعرب من : شعر ، وخطب ، ومحاورات ، ومفاخرات ، ومنافرات ، ووصايا ، ومثل ، وحكمة ، وكهانة .

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم ، فخروا ساجدين لفصاحته ، مذعنين لبلاغته ، مقرين بأنه نسيج وحده ، وعلم مفرد فى طبقته فى البيان.

بهر الشعراء منهم ، فخرست ألسنتهم وسكتت شاعريتهم ، وضاع إلهامهم ، كما يضيع السراب فى الصحراء ، وعجبت الخطباء فيهم ، فخرست مقاولهم ، وصمتت ملكاتهم ، وفقدوا مواهب البلاغة والقول .. وذهبت كل بلاغة فى تياره ، وضلت الفطر الأدبية العالية ، وفرت أمام أضواء نهاره .

ولكن زعماء الشرك أبوا الإذعان للدين ، والإيمان برسالة سيد المرسلين . فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام ، ويؤلبون قوى الشرك على دعوة الإسلام .. فقالوا فى القرآن: هو شعر، هو سحر وهى أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا مثل هذا ، وإن هذا إلا اختلاق . . ورموا محمداً بالجنون .

فتحداهم الله عز وجل ، ورسوله محمد صلوات الله عليه ، بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة ، بالقرآن الكريم ، والكتاب العربى المبين . قال الله تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين »[1] . وقال تعالى : « أم يقولون : افتراه ، قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ »[2] .

(١) البقرة : آية ٢٣ و ٢٤ وهى مدنية .
(٢) هود : آية ١٣ و ١٤ — وهى مكية .

وقال تعالى : « أم يقولون : تقوله ، بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا صادقين »(١) . وقال تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »(٢) ، فسجل عجز البشر كافة، وبين أنه لا يستطيع الإنس والجن — ولو تظاهروا — الوقوف أمام هذا التحدى « ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة ، التى هى فوق طاقتهم ، لأنها بلاغة خالق البشر ، ومصور الإنس والجن ، الملك القادر والمدبر الحكيم : الله جل جلاله ، وعلت قدرته ، وعظمت حكمته .. ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر ، وبرأ رسوله من أن يكون شاعراً وساحراً ، ومن الافتراء والجنة ، ومن الكذب والخيال ، « والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » (٣) .
وقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه عاجزين ، وإنه لتذكرة للمتقين ، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على

---

(١) الطور : ٣٣ و ٣٤ وهى مكية .
(٢) الإسراء : ٨٨ وهى مكية .
(٣) النجم : ١ — ٤ وهى مكية .

الـكافرين ، وإنه لحق اليقين »[1] .

وهكذا رد الله عز وجل عليهم وبين كذبهم وافتراءهم ، ونفى عن القرآن الـكريم ما وصفوه به ، وبين أنه منزل من السماء ، وأنه معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ، وتحداهم — إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين — إلى الإتيان بمثله ، أو بعشر سور مفتريات من مثله ، أو بسورة واحدة . فعجزوا أمام التحدى ، وباءوا بالخزى والهوان والذلة ، وصغرت نفوسهم وأقدارهم ، فلم ينطقوا بقول ، ولم يجاروا بلاغة القرآن فى آية أو آيات أو سورة أو سور ، واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة ، لا فرق بين خطيبهم وبليغهم وشاعرهم ، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم .

ثم امتدت الأجيال ، وتوالت العصور ، والقرآن يتردد صداه فى المشارق والمغارب فلم نر رجلا وقف يتحدى بلاغة القرآن ، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان ، ولم نر مفكراً يؤلف كتاباً أو شاعراً ينظم قصيدة ، أو خطيباً يلقى خطبة ، أو كاتباً يحبر رسائل ومقالات ، ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة ، أو شبيه ذلك السحر . وفى تاريخ العربية فحول وفحول: كابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع ، وكجرير والفرزدق وبشار وأبى نواس وأبى تمام والمتنبى والمعرى وشوقى ، ولـكن أين بلاغاتهم من هذه البلاغة ، وأين منازلهم من هذه المنزلة ؟ وهل

---

(1) الحاقة : ٤٠ — ٥١ وهى مكية .

منهم إلا من أذعن وبهر ، وخشع وسحر ، وخضع وأخذ ، وأقر أنه وحى من السماء .. وفيها كتب ومؤلفات فى أعلى ذروة البلاغة : كنهج البلاغة ، ورسائل الجاحظ ، وكليلة ودمنة ، ومقامات البديع .. الخ ..

ولكن ما هذه وغيرها من المؤلفات ، وما مكانتها وما قيمتها ، وما أثرها وما خطرها فى البلاغة الأدبية ، أمام كتاب الله المعجز وكلامه الحكيم ؟ .. بل أمامك الحديث النبوى الشريف ، هو فى الدرجة العليا من الفصاحة ولكن أين يقع نظمه من نظم القرآن ، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسى البيان .

واقرأ إن شئت بلاغة البلغاء ، وفصاحة الفصحاء ، ثم انظر — بسكون طائر ، وخفض جناح ، وتفريغ لب ، وجمع عقل — فى ذلك ، فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين. وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الآدميين[1] ، وأراد مسيلمة الكذاب — فيما يروى — أن يقول كلاماً ، فخزى وعجز ، وبان عليه العى والحصر ، وباء بالخسران وسوء المنقلب ، وأين يقع قوله « والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت « أسيد » من رطب ، ولا يابس » . وقوله : « والمبديات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثردا . واللاقمات لقما ، إهالة وسمناً ، لقد فضلتم على أهل

(١) ١٢٦ إعجاز القرآن للباقلانى . طبعة ١٩٤٨ .

الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، وغير ذلك من(1) كلامه ، من ذلك السحر والنظم القرآنى العجيب المعجز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد(2) .

وفى الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون . وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء ، ولكل منهم كتب وآثار أدبية .

ولكن هل هناك من هذه الآثار ، ما يعادل فى أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم ، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة . وتحديد واضح للمثل الإنسانية العليا . ورسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب ودعوة إلى الحق وللعدل والحرية والإخاء والمساواة المدنية والعلم والعرفان ؟ وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدسونه ، ويعدونه دستورهم فى الحياة ، يقتبس الأدباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الأدبية والعلمية ؟ وهل من بينها أثر قام به دين ، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم برايتها أجيالا طوالا مثل القرآن الكريم . والكتاب الحكيم ؟ وهل للقرآن - بربك - شبيه من الكتب : وحد لغة وحفظها وأذاعها فى العالم ، ورفع شأنها وهذب ألفاظها وأساليبها ، وأحيا فنوناً جديدة من الأدب ، وتأثر الناس ببلاغته وسحره ، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة . .

---

(1) راجع طرفا منه فى المرجع نفسه ص ١٢٨ .
(2) آية ٤٢ سورة فصلت .

كالقرآن الكريم ، وما أحدثه من آثار أدبية وبيانية وفكرية فى لغة العرب ، فوق آثاره فى حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وفى حياة العالم والإنسانية كافة ؟

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم ، يؤمنون ، إيماناً صادقا ، بأن لا سبيل إلى الوقوف فى تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه ؛ وأنه شىء انفرد به وحده ، وأنه كلام الله وكتابه . وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما بنيت على هذه المعجزة ، وذلك الكتاب الحكيم المبين ، الذى عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله . . وستمضى وتتوالى الأجيال ، وهو يضىء كما يضىء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر . ويفتن الألباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته ، وصدق الله العظيم : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » .

أدلة التوحيد فى القرآن

وقال الله تعالى : « لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد » - ٥١ سورة النحل .

إن الحقيقة الكبرى فى القرآن الكريم هى الدعوة إلى التوحيد ، توحيد الله وحده ، عبادة إله واحد خالق قادر رازق ، له ملك السموات والأرض وما بينهما : هى إعلان الحرب على الشرك والمشركين ، المشركين بالله غيره من شتى المعبودات والآلهة . .

وأدلة التوحيد فى القرآن الكريم ظاهرة واضحة كثيرة :

١ — فقد خاطب الله العقل وبصره بوحدانية الله وألوهيته ، بكل حجة وكل دليل . . وانظر إلى قول الله تعالى فى كتابه الحكيم : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله ، فقل : أفلا تتقون ، فذلك الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون »[1] . . ولو حاولنا جمع كل دليل ، خاطب الله عز وجل

(١) الآيتان ٣١ و٣٢ سورة يونس .

فى كتابه الحكيم العقل لينبهه إلى الإيمان بتوحيد الله ـ لكان لنا من ذلك كتاب ضخم .

٢ — وخاطب الله عز وجل الوجدان ونبهه إلى توحيد الله ، ولفته إلى مشاهد الكون الدالة على وجود الله وألوهيته وقدرته ووحدانيته .

وجه القرآن أنظار المسلمين فى كل لحظة إلى الطبيعة وإلى تسخيرها لبنى الإنسان « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .. « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » . . « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت » .. « أفلا ينظرون إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » .

ويمضى القرآن فى توجيه أنظار المسلمين إلى مخلوقات الله وإلى أن شكر الله فى خلقها لهم إنما يتمثل فى أن يعرفوا سنن الله فى الكون معرفة تجربة وملاحظة ومشاهدة حسية حتى يروا الإبداع

والتكوين الدقيق والتنسيق الذى لا يمكن أن يصدر عن مصادفة عمياء .

وانظروا إلى الدليل الوجدانى العميق الذى يبصر الله عز وجل به فى كتابه الحكيم الناس إلى وجود الله ووحدانيته : يقول الله تعالى :« هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . .(١) »

٣ — التبصير بمصارع الأمم السالفة التى أشركت بالله ، وكفرت برسالاته ، وكذبت أنبياءه ورسله .

٤ — بيان عجز الإنسان وما خلق أمام قدرة الله العلى العظيم وما أنشأ من أرض وسموات وكواكب ونجوم وألوان علوية وسفلية ، وفى القرآن الكريم مئات الآيات الدالة على ذلك ، واقرأوا قوله تعالى : « ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز(٢) » ، وقوله تعالى : « ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب »(٣) .

---

(١) آية ٢٢ سورة يونس (٢) آية ٧٤ سورة المؤمنون .
(٣) آية ٧٣ سورة المؤمنون.

إلى غير ذلك من أدلة التوحيد فى القرآن الكريم .

هذا التوحيد الذى يتنكر له مشركو اليوم فينفون وجود الله ، ويحاربون الإيمان ، ويعبدون الظنون والأوهام والأباطيل ، ويفترون على الله الكذب وهم يعلمون .

ولقد أمرنا أن نوجه وجوهنا إلى الله قائلين : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين .

القرآن والرسالات السماوية

قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل
إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب
والأسباط، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى
النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن
له مسلمون — ١٣٦ البقرة

حقيقة كبرى من الحقائق الخالدة فى الكون؛ أن ينزل الله شرائع للناس على لسان رسول منهم، يبلغهم آياته، ويبصرهم بالحق ويهديهم إلى صراط مستقيم.

حقيقة كبرى يتنكر لها مشركو اليوم، فيقولون: لا رسل ولا رسالات ولا كتب سماوية، ولا ملائكة تنزل بالوحى، ويزعمون أن ذلك خرافة ووهم، وأن العقل لا يمكن أن يقبل مثل ذلك فى عصر العلم.

وكذبوا وافتروا وضلوا على الله ضلالا بعيداً، إن الله عز وجل لم يكن ليعمر الكون إلا بأن يهدى الناس إلى أمثل العبادات والشعائر والأخلاق، ولم يكن يهديهم إلى ذلك إلا بأن يبلغ رجالا منهم — يصطفيهم ويجتبيهم — رسالاته وشرائعه وشعائره؛ وليس

من وسيلة لهذا التبليغ إلا بأن ينزل ملكا من السماء على من يصطفيه برسالته ليبلغه كل ما أراد الله تبليغه للناس .. وهذا ما كان

يقول الله تعالى : «ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا ، أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين»[1].

بعث الله إلى آدم وإلى نوح وإلى إبراهيم وإلى النبيين من بعدهم ، واختتمت الرسالات بمحمد بن عبد الله ، فنزل عليه القرآن آخر الكتب السماوية وأجمعها هداية إلى الله وإلى الحق وإلى صراط مستقيم .

وقد قص الله عز وجل فى كتابه قصص الأمم السالفة وأنبياءهم ورسلهم المبعوثين إليهم ، وبين مصائرهم وما واجهوا به أنبياء الله فى كثير من المواضع والآيات .

وفرض الله عز وجل الإيمان برسالات الله ورسله وعدم الريب فى أحد منهم ، يقول الله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير[2] ».

ويذكر الله المسلمين بأن دينهم قد جمع كل ما فى الأديان السالفة

---

(١) ٣٦ النحل (٢) ٢٨٥ سورة البقرة

من أصول ومثل ومبادىء وشعائر فيقول : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب (١) » .

ولقد عبر الله أعظم تعبير عن اختيار الرسل لرسالاته بالاصطفاء فقال : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم (٢) » وقال الله عز وجل : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » (٣)

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على رسالاته ، والذاكرة لرسله والمبينة لأصول ماجاءت به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

إن الرسالات السماوية كانت خير مرشد للإنسانية فى ضلالها وحيرتها ، وكانت خير موجه للعقل البشرى فى جهله وعماه، وكانت أعظم ضوء أنار الحياة كلما ضل الناس وعموا وغووا وأشركوا بالله مالم ينزل الله به سلطانا . .

والعقل لا يفهم كثيراً من أمور الإنسان الباطنية ، فكيف يستطيع أن يدرك أسرار ما خلق الله ، وأسرار شرائعه ، وأصول الأديان التى تمنح الإنسان الخير والطمأنينة والرشاد والسعادة .. ومن ثم كانت الرسالات السماوية لهداية الناس حيث عجز العقل ،

---

(١) ١٣ سورة الجاثية (٢) الآيتان ٣٣ و ٣٤ آل عمران (٣) ١٢٥ الأنعام

وعجز الإنسان عن فهم أسرار الحيـــاة والكون والوجود ...

وصدق الله العظيم : «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء،إنه على حكيم ، وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور»(١)

وصدق الله العظيم فيما يقول لرسوله الكريم «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان ، وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصنا عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما ، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة من بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما»(٢)

(١) ٥١ــ٥٣ سورة الشورى (٢) ١٦٣ وما بعدها النساء

القرآن والغيب

ذلك الكتاب لاريب فيه ، هدى للمتقين
الذين يؤمنون بالغيب — ٢ و ٣ سورة البقرة

يكذب المشركون الماديون ، مشركو اليوم، بالغيب ، يكذبون بالأديان لأنها فى رأيهم خرافة ، ويكذبون بالرسالات ، لأنها فى زعمهم وهم ، ويكذبون بالله لأنه فى رأيهم لاوجود له ، ويكذبون باليوم الآخر ، لأنه تخويف وإرهاب للإنسان وحجر على حريته كما يزعمون .

وكذلك افتروا وضلوا ضلالا بعيداً .

إن الإيمان بالدين وبوجود الله ، وملائكته وكتبه ورسله ورسالاته وباليوم الآخر شيء لا مفر للإنسانية منه ، وقد عرفته الإنسانية منذ مئات الآلاف من السنين ، ولا ينكره العقل ولا العلم ، ولا يمكن أن يكون فيه ما يعوق تقدم الإنسانية نحو غد أفضل ومستقبل منشود .

وما دمنا قد تكلمنا عن الرسالات وعن وحدانية الله ، فلنتكلم فى إيجاز عن الملائكة واليوم الآخر .

أما الملائكة فقد ورد ذكرهم فى جميع الكتب السماوية ، وهم خلق آخر من مخلوقات الله غير الإنسان ، وأجسامهم أثيرية لا ترى ، وهم منتشرون فى كون الله العظيم ، يسبحون بحمده ويسجدون له ، ويحمدونه وينزهونه ، ومنهم جبريل عليه السلام ، وهو ملك الوحى ، الذى نزل على الرسل برسالات الله .

والإيمان بالملائكة أمر لا يتنافى مع العقل ولا مع العلم فى شىء ، فأكوان الله العظيمة ، ومخلوقاته الكبرى ، والسموات والأرض والكواكب والنجوم ، لا يحيل العقل أن يكون فيها مخلوقات من مخلوقات الله ، وعباد من عباده الطيبين الطاهرين المقربين ؛ ولندع ذلك ، أليس فى الفضاء بين السماء والأرض والكواكب والنجوم والمجرات الكثير من آيات الله التى لم يصل العقل بعد إلى فهمها وإلى اكتناه أسرارها ! أليس فى الأثير بما يحتوى عليه ما يمكن أن تعيش فيه أجسام شفافة نورانية تسبح بحمد الله . .

ولننظر إلى اليوم الآخر الذى يكذب به المشركون والماديون كما كذب به من قبل أسلافهم . . إن القرآن الكريم يؤكد حقيقة اليوم الآخر تأكيداً قوياً متينا فى جميع آياته وسوره ، وينعى على المشركين تكذيبهم به ، وإنكارهم له . . ويتهكم بهم وبما يفترون تهكما كبيراً ؛ يقول الله تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن

الله يبعث من فى القبور [1] » .

وقال تعالى : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ، واتخذوا آياتى ورسلى هزوا » [2] .

وقد تحدث الله عز وجل فى كتابه الحكيم عن اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار حديثاً مستفيضاً . ونعى على المشركين شركهم وكفرهم باليوم الآخر ، فقال تعالى عنهم : « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » .

ويؤكد الله عز وجل أمر الساعة فيقول : « إن الساعة لآتية لاريب فيها، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون [3] » ويقول عز وجل: « وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون [4] » .

---

(١) ٦ و٧ سورة الحج .

(٢) ١٠٣ — ١٠٦ سورة الكهف .

(٣) ٥٩ سورة غافر .

(٤) ٧٤ سورة المؤمنون .

إن الإيمان باليوم الآخر بما يشتمل عليه أصل كبير من أصول الأديان وفى مقدمتها الإسلام الكريم ، ومهما قال الماديون والشيوعيون المحليون فإننا ننظر إلى كذبهم وافترائهم وبهتانهم بالسخرية والتهكم الشديد .. « قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ، وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون(١) » .

(١) ٣١ سورة الأنعام .

الدين لاغنى للناس عنه

أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى
السموات والأرض طوعا وكرها ، وإليه
يرجعون — ٨٣ آل عمران .

إن الدين فى عرف الشيوعيين المحليين وزعمائهم : خرافة ، وهو مخدر للشعوب . والدين عندهم هو ما أتى به ماركس ، لا دين غيره ، لا مسيحية ولا إسلام ، لا يهودية ولا غيرها ؛ لا توراة ولا إنجيل ولا قرآن ، لا رسل ولا رسالات .. لنؤمن إيمان أعمى برأس المال لماركس ، وبسواه من الكتب المفسرة له ، والمؤيدة لمذهبه ، ولنكفر بكتب الله ورسالاته .

الدين إثم وضلال وبهتان فى عرف الشيوعيين ، ولكن الشيوعية دين حق وصدق ورشد وسعادة لمتبعيه .
وكذبوا وضلوا ضلالا مبيناً .

فى الإنسان غرائز وطبائع مختلفة جسمية ونفسية ، وللجسم حاجات وللنفس ميول ورغبات ؛ وقد تجمح هذه الغرائز فتضل وتتعدى الحدود فتظلم ، فلم يتركها الله سبحانه وتعالى دون أن يضع لها الحدود وينظم لها أساليب الحياة وينظم لها أساليب العلاج ؛

والله سبحانه هو العليم بما أودع فى الإنسان من قوى ، وركب فيه من غرائز ، وهو اللطيف بخلقه ، والمدبر لعباده بحكمته ، فوضع له ما شاء من نظم للعبادة ، وما شاء من نظم للمعاملات والمعاوضات ، وأرشده إلى أصول الأخلاق ، وصحح له العقيدة فى الكون وخالقه ؛ فرض عليه أنواعاً من العبادة هى علاج للجسم وعلاج للنفس ورياضة للقوى الجسمية والروحية ، آمن بها أهل الإيمان الكامل من غير بحث عن أسرارها ، وبحثوا ليطمئنوا ، وأداها الجاهل خوفاً من العذاب دون نظر إلى فائدتها ، وقد يكون ضجراً منها ، وأنكرها الكافرون والضالون وازدراها العابثون ، وما بالله حاجة إلى عبادة الناس وإلى شكر الناس ، فهو الغنى عن العالمين: « إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر، وإن تشكروا يرضه لكم » . . . وهذه الشعائر وما يتصل بها هى الدين .

وما من عبادة من العبادات إلا والتقوى هى الغرض منها والسر فى فرضها ؛ والتقوى أساسها الخوف من الله ، وهى مصدر الإحسان إلى العباد ، ومصدر الأمانة والإصلاح وانتظام أمر المعاملات والمعاوضات بين العباد ، متى وجدت فإن أحداً لا يظلم أحداً ، وإن أمة لا تظلم أمة ، ولا يجور حاكم على محكوم ، ولا يخون محكوم حاكما .

إن الدين هو شريعة الإصلاح ينظمها قانون سماوى له فى

النفوس الحب والتقديس ، وهو الناموس الخالد لدعوة التجديد والبناء والنهضة والحضارة ، والنبع الأزلى للحقيقة والإيمان والعدالة ، فليس هو مخدراً للشعوب كما زعم كارل ماركس وأنصاره من دعاة المادية والإلحاد ومحاربة الدين باسم المدنية ، ومن الذين يغالون فى إنكار الروحيات ووجود الله ومعاداة كل ما يمت بصلة إلى الدين ، ويزعمون أنه يجافى العقل والعلم والتقدم : وإن الأديان السماوية عامة ، والإسلام من بينها خاصة ، لا تعترف بأية وصاية أو حجر على العقل ، ولا تقر ظلماً أو عدواناً ؛ ولا تلبس الأهواء والشهوات مسوح الدين . ولا تشرع ما ينافى ناموس الارتقاء .

ولقد جاء الإسلام ، فأيقظ الشعوب ، وعزز فكرة الإصلاح ، وحمى الحرمات والحريات وكرامة الإنسان . لم يترك حقاً إلا شرعه ، ولا عدلا إلا فرضه ، ولا فضيلة إلا أوجبها ، ولا خيراً إلا دعا إليه . حارب الاستغلال فى شتى صوره ، واعترف بشخصية الإنسان المعنوية ومكانته الأدبية فى الحياة ، فجعل له حقوقاً كفلها ورعاها ، وحذر من يعتدى عليها من سخط الله وغضبه وعذابه الأليم . لم يقاوم الإسلام رغبة جماعة فى الإصلاح ، بل أنكرته الجماعات المتأخرة لما تدعو إليه مبادئه من تجديد وتنظيم وإصلاح . وهذه المبادىء المثلى هى التى كانت تدعو بنفسها إلى الإسلام فى شتى الأقطار والأمصار ، وهى التى مهدت لقيام حضارات زاهية مشرقة ، كانت نواة الحضارة الحديثة .

ولا عجب فللإسلام مآثره الرائعة فى تحرير الشعوب ، والذياد عن الحقوق ، وتنظيم الواجبات ، وفرض العدالة والمساواة والإخاء ، وحماية الفكر ورعاية الثقافة .

ولا ريب أن فى اتباع مبادىء الدين والسير على مناهجه ، والإيمان بما يدعو إليه من مثل ، عصمة من الزلل ، ومنجاة من العثار . فالمبادىء القوية لا تخلق الجماعات القوية إلا إذا آمنت بها واتبعتها ، واتخذت منها ناموساً كريماً ونظاماً قويماً ، يقيها عواصف الأهواء . وزيغ العبث والعدوان والشهوات .

وإذا كان هناك من يتجر بالدين فى عصور التأخر الفكرى والاجتماعى ، فليس ذلك ذنب الدين نفسه ، إنما هو ذنب من يريد أن يحيل النور ناراً ، والهدى ظلاماً ، ويعلم الحق ويكتمه ، ويحامل فيه ، ويحاول أن يطفىء نور الله : ولقد حذر الله تعالى من هؤلاء ، وأنذرهم بعذاب شديد .

وبعد فليس أدل على ضلال خصوم الدين من إنكار كثير من الفلاسفة والمفكرين لآرائهم الإلحادية ، وجهرهم بأن الدين شىء مقدس لا تستغنى عنه الإنسانية ولا الحياة . . ففكرة الدين ، وعقيدة الله الذى ليس له نهاية ، وقدسية الروح ، وتنظيم العلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهايه ، وإن الإنسان لا يستطيع أن يعيش على الأرض إذا فقد الإيمان بالدين والعقيدة فى وجود الله ، ومن آمن بالمادية فقد

كفر بالخالق الأعظم ، وأسلم نفسه للحيرة والضلال : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض : طوعا وكرهاً ، وإليه يرجعون » .

الدين هو مصدر القوة المعنوية فى الأمم . ومهذب الأخلاق والنفوس فى الجماعات . وكالىء الحق والعدالة والنظام فى الإنسانية وقائد الناس إلى الخير ، والإيثار والمعروف ، وإلى الإيمان والأمن والسلام ، وإلى العلم والحضارة والعزة والمنعة والسمو الروحى والطمأنينة النفسية .

وهو المرشد إلى الحب والرحمة والإخاء والتعاون ، والموجه إلى المثل العليا والفضائل الإنسانية المهذبة ، وإلى خدمة البشرية كافة ، وأخوة البشرية بشتى طبقاتها وعناصرها وجماعاتها وأممها ، والداعى إلى أداء الواجب والشعور بالمسئولية ، وإرضاء الضمير ، والنأى عن الشبهات ، والتضحية بالنفس والمال فى سبيل الجماعة وخيرها .

وليت شعرى ، أى وازع أكثر من وازع الدين ، وأى سلطان أكبر من سلطان الإيمان والعقيدة . فإذا ضعف هذا الوازع والسلطان ، وذلك الموجه والمرشد والقائد والرائد ، فماذا يبقى لنا من خير الدنيا والآخرة .

قد تقولون إن العقل والعلم والمدنية هى كل شىء وفيها كل خير ومنها نستمد القوة والعزيمة والقدرة على العمل .

ولكن ألم تكن فرنسا يوم انهارت قوتها أمام الألمان تأوى من العلم والعقل والمدنية إلى ركن شديد ؟

وهل أغنى العلم والعقل والمدنية الأمم عن الانحلال والفناء شيئاً ، وهل ردت عادية الشقاء عن ملايين البشر الذين يعيشون فى ظلالها فى العصر الحديث .

أيها الناس : لن ينقذكم من هذا الشقاء والضعف إلا أن تؤمنوا وأن يكون الله ورسوله أحب إليكم من الدنيا وزينتها ، وكل شىء فيها .

أيها الحائرون : لا هداية لكم إلا إذا أدركتم الحقيقة من منبعها الأول ، ومصدرها الأزلى الطاهر الكريم ، تعاليم الدين وشريعة السماء وسنة محمد والأنبياء من قبله .

إى وربى لن يعود لحياتنا السلام والأمن والطمأنينة ، إلا إذا رجعنا إلى الدين وعدنا إلى حظيرته المقدسة .

فالدين هو الذى يستطيع أن يدافع عن حق الشعب فى الحرية والعدالة الاجتماعية ، ويحمى حقوق العامل والصانع والزارع والتاجر والمرأة . وهو الذى يدعو إلى تقديس حرية الرأى والفكر ، وهو الذى يهذب الضمير ، ويثقف الوجدان ، ويرقق المشاعر . ليشعر الناس بالمسئولية ، ويحافظوا على العدل ، وعلى إقامة شرائع المحبة والتعاون والشورى والمساواة الحقة بين الجماهير ، حتى يتألم الرجل لألم أخيه فى الوطن . وصاحبه فى

الإنسانية ، ويبكى لهموم المحزونين وآلام البؤساء والمساكين ، ويقدس الخدمة الاجتماعية والإيثار ، وينبذ الأثرة والعصبية والمحاباة وراءه ظهريا ، ويجعل شعاره : « الوطنية عدل وكرامة ، والحياة حب وتعاون ، والعيش رضا وقناعة » والسعادة فى محبة الناس وعمل الخير ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا » .

من هذا الذى يبكى لبكاء أخيه . ويفى بحقوق الصداقة لصديقه ويواسى زميله فى محنته . ويسعى لخير غيره وإن شقى هو ؟ وأين الرجل الذى يضحى اليوم بنفسه فى سبيل وطنه ، ويؤثر غيره على روحه ، ويجاهد فى إنقاذ المكروبين . وتفريج هموم المحزونين .

مثل عليا فى الخلق والفضيلة والإيمان نعتقدها فلا نجدها . وننشدها فلا نراها . من يوم أن انتهى إيماننا القوى بالله .

لقد كان تشرشل خلال الأزمات العالمية الخطيرة يدعو شعبه إلى الصلاة ، وكان « بيتان » ينادى فى مواطنيه الفرنسيين فى أيام المحنة : أن عودوا إلى الله لأنه خير طبيب روحانى وخاصة فى الأزمات .

ونحن اليوم لا نجد من يصيح فى الجماهير : أن آمنوا بالله ، ليزرع الله فى قلوبنا المحبة والتعاون والعدل ، وليرع فى نفوسنا الرضاء والسعادة والفرح ؛ ولينبت فى أرضنا الطيبة الخير والقوة والكرامة .

وتكفر الماركسية بالدين ، ناهجة نهج داعيتها كارل

ماركس اليهودى المتطرف ، وقد ورث الروح المادى عن أستاذه إنجلز الذى كان يقول : « إن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا ، والذى نحن جزء منه ، هو الحقيقة الوحيدة ، وليس الإدراك والتفكير إلا نتاجا لعضو من أعضاء جسمنا ، وهو المخ ، فليست المادة من إنتاج العقل . بل إن العقل نفسه ما هو إلا أسمى إنتاج للمادة . و تفسير ماركس للمادية هو الأساس الأول الذى يبنى عليه الشيوعيون مذهبهم ، فنجد لينين وستالين يقرران أن المادة والطبيعة والوجود حقائق موضوعية ، خارج نطاق عقلنا ، ومستقلة عنه ، والمادة تأتى فى الصدارة ، ويتلوها العقل ، ومن ثم فالحياة المادية للمجتمع والوجود المادى له ، لها السيادة على الحياة الروحية التى هى انعكاس للمادة ، كما يقرران أن العالم بطبيعته مادى ، وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة فى تحرك ، وأن ارتباط الظواهر واعتماد بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة ، وليس من حاجة إلى الروح الشاملة(١) . . وكذلك تؤمن الشيوعية الحديثة بنظرية النشوء والارتقاء التى قال بها دارون ، ومن ثم تصر على إنكار وجود الله . وكان إنجلز يرجع كل شىء حتى الدين ، والأخلاق والفكر والثقافة إلى انعكاسات للأحوال الاقتصادية والمصالح الطبقية(٢) . ويفسر هو

---

(١) راجع ٨٣ المذاهب السياسية المعاصرة ، ١٤٢ الدستور السوفيتى ؛ ٥٢ الشيوعية فى الميزان .

(٣) راجع ٣٠ و٣١ الدستور السوفييتى - طبع النهضة ١٩٤٩ .

وتلاميذه الأحداث التاريخية تفسيراً اقتصادياً ، وهذا التفسير الاقتصادى للتاريخ ينكر الدين . وكان ماركس لا يؤمن بالمثل ، ولا يدين إلا بالمحسوسات ، ويؤثر عنه قوله : « لا إله والحياة مادة » وقوله « رسالة الطبقة العاملة هى القضاء على الدين والداعين إليه » ، وكان « هوبز » يقول : « إن الأشياء المادية وحدها هى المحسوسة بالنسبة لنا ، فأنا لا أستطيع أن أعلم شيئاً عن وجود الله ، ووجودى الخاص هو وحده الأمر المؤكد ، أما ما عداه فخيال لا أصدقه » . وكان إنجلز يقول : « لا محل مطلقاً لوجود خالق »[1] .

كل هذا قطرة من بحر من آراء الماركسيين فى إنكار الروحيات، وجحد وجود الله ، ونبذ فكرة الدين ، وحربهم الخطرة على الأديان .

ولا شك أن هذا المذهب الإلحادى على ضلال مبين ، وهو لا يحارب بآرائه الإسلام وحده ، وإنما يشرك معه جميع الأديان، والذين يؤمنون بهذا الإلحاد فى رأى الإسلام مرتدون ، يقاتلون حتى يفيئوا إلى دين الله وإلى الحق .

إن الدين عنصر من العناصر التى لا تتم الحياة بدونها،وهو رسالة الله إلى الإنسانية ، حملها الأنبياء والمرسلون ، وأدوها إلى الناس لخيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة . والفلاسفة والمفكرون

---

(١) ١٧ الاشتراكية العلمية والاشتراكية الخيالية لفردريك إنجلز.

الذين لهم خطرهم فى الحياة الفكرية فى العالم القديم والحديث كانوا من خير الدعاة الى فكرة الدين والإيمان بالله ورسله ، وكان تولستوى يقول : « ان الدين وحده هو الذى يجعل الحياة ممكنة » ويقول : اننى لا أعيش اذا فقدت العقيدة فى وجود الله ، ولولا أننى كنت أتعلق بأمل غامض فى وجود الله لقتلت نفسى من زمان بعيد ، عش باحثاً عن الله واذاً فلن تعيش بدونه ، وعندما اعتقدت فى وجود الله اعتقدت فى الكمال الخلق وفى التقاليد التى تحمل معنى الحياة »

ويقول شوبنهور : ان فكرة الإله الذى ليس له نهاية وقدسية الروح ، والعلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وهى تلك الأفكار التى لا يمكن لى ولا للحياة البقاء بغيرها . ويقول رينان : ، من الممكن أن يتلاشى كل شىء نحبه الا التدين فسيبق أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى . ويثبت كريسى موريسون الرئيس السابق لأكاديمية العلوم فى نيويورك فى كتابه « الإنسان ليس وحيداً » وجود الله بأدلة علمية لا تقبل الجدل وينتهى الى أن الله فى كل مكان وكل شىء ولكنه أدنى ما يكون الى قلوبنا ، وأن قول صاحب المزامير : « السموات تحدث بمجد الله والفلك يخبر بعمل يديه » هو قول صحيح من ناحية العلم والتخيل جميعاً [1] ، وأكد عدد كبير

(١) راجع مجلة المختار عدد فبراير ١٩٤٧ ـ مقالة عنوانها : سبعة أسباب لإيمان عالم بالله .

من علماء الذرة والفلك وعلم الحياة والرياضة أن لديهم أدلة كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لا حد له ، ويقول الدكتور راين : إنه ثبت من أبحاثه فى المعامل أن فى الجسم البشرى روحا أو جسما آخر غير منظور . وقال عالم آخر : إنه لا يشك فى أن الكائن الأعظم وهو ما تسميه الأديان السماوية الله هو الذى يسيطر على الطاقة الذرية وغيرها من الظواهر والقوانين الخارقة فى هذا الوجود(٢)

وإذا ثبت وجود الله ثبتت الرسالة وفكرة الدين ، وثبت أن محمداً والرسل قبله صادقون فيما يحدثون به عن الله من عقائد وشرائع وأديان، وأن علينا واجب الإيمان بها وبخاتمة هذه الرسالات وهى، دين الإسلام ، وبالكتاب الخالد « القرآن » معجزة هذه الرسالة.

وصدق الله العظيم فى قوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ »

إن الدين أمر ضرورى للناس ، ولا غنى للبشر عنه ، إنه هو الذى يهدى الناس إلى الحق والآداب والفضائل والأخلاق والشعائر والشرائع ، وإلى النواميس الصالحة للحياة فى الأرض ، وإلى وسائل العزة والكرامة والصلاح فى الدنيا .

---

(٢) راجع عدد ٢٣-٨-١٩٥١ من جريدة المصرى .

وهو فوق ذلك يهدينا إلى السعادة فى الآخرة،وإلى الوسائل التى تبلغنا فيها رضاء الله ومثوبته وجناته ونعيمه ورضوانه المقيم .

إننا لن نكفر بالدين ..

لنتبع ديناً آخر يدعونا إليه الشيوعيون المحليون اسمه الشيوعية والماركسية والمادية الجدلية .

لقد آمنا بالله رباً ، وبمحمد نبياً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن وحياً منزلا من السماء ..ولن نؤمن بغيرذلك ، مهما قال الشيوعيون المحليون ..

وصدق الله العظيم حين أمر باتباع الدين ،وفرضه على العالمين، فقال : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون [1]» .

---

(١) آل عمران ٨٤ .

الله .. رب الكون والحياة

ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى
إلى النار ، تدعوننى لأكفر بالله ، وأشرك به
ما ليس لى به علم ، وأنا أدعوكم إلى العزيز
الغفار ، لا جرم أن ما تدعوننى إليه ، ليس له
دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا
إلى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار ؛
فستذكرون ما أقول لكم ، وأفوض أمرى
إلى الله إن الله بصير بالعباد – الآيات
٤١ – ٤٤ غافر .

لا يكف الشيوعيون المحليون عن افتراءاتهم الباطلة ، فهم فى مجتمعاتهم وفى خلاياهم يدعون إلى الكفر بالله ، إلى الإلحاد ، إلى الوثنية والشرك والضلال ، إلى اعتقاد أن الله خرافة ، وأن وجود الله لا حقيقة له ، وأن الكون خلقه التطور ، وأن الحياة من صنع نفسها لا من صنع إله معبود .

ومع ذلك فإن الشيوعيين المحليين يمجدون ماركس ولينين

وستالين تمجيدهم للآلهة ، ويعبدونهم من دون الله ، ويرونهم لا فى مصاف البشر بل فى مصاف الإله المعبود .

إن وجود الله أمر قد فرغت منه الإنسانية منذ آلاف الأجيال والقرون . إنه قد استقر فى أعماق النفس الإنسانية منذ خلق الله الكون والحياة . إن القرآن الكريم ليعبر عنه أبلغ تعبير فيقول : صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ، قل أتحاجوننا فى الله،وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، ونحن له مخلصون[1] . ويقول الله تعالى فى إبراهيم : « وحاجه قومه ، قال : أتحاجونى فى الله وقد هدانى ، ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعملون[2] ».

إن الرجوع فى القرن العشرين بعد الميلاد إلى النقاش فى أمر وجود الله عود إلى الوثنية والشرك والبهتان ، ورجوع بالإنسانية إلى القهقرى ، وإفك عظيم .

وعلماء الفلك والطبيعة والطب يعرفون من آثار قدرة الله فى السموات والأرض ما لا يمكن أن يدع عندهم مجالا للشك فى وجود الله وقدرته وحكمته .

(١) ١٧٨ و ١٧٩ البقرة .   (٢) ٨٠ و ٨١ الأنعام.

إن الأمواج اللاسلكية التى تسير بأعظم سرعة نعرفها وهى سرعة الضوء وقدرها (١٨٦٠٠٠) ميل فى الثانية ..!! تصل المريخ فى دقيقتين . وقد يذهل القارىء إذا علم أن هذه الأمواج تحتاج إلى سنين ومئاتها بل وألوفها لتصل إلى بعض الأجرام الموجودة خارج مجرتنا . وقد لا يصدق بعض الناس إذا قيل لهم أن أقصى السدائم التى نراها فى الفضاء تصل إليها الأمواج فى (١٤٠) مليون سنة ..! ، وسيكشف لنا العلم بوسائله المتعددة عن سدم أبعد من هذه بكثير .

ومن هنا يتبين أن المسافات التى تفصل بين الأجرام السماوية شاسعة جداً قد لا يستطيع العقل البشرى تصورها ، وأن الكون أعظم مما نتصور ، وأنه كلما تقدم الإنسان فى ميدان العلم تتجلى له عظمة هذا الكون وروعته كما تتجلى غرائبه وعجائبه بما يخلب اللب ويحير الفكر ، وهو الدليل القاطع على عظمة الله خالق هذا كله .

ومن يبحث فى هذا الكون العجيب المتسع ويمعن فى الوقوف على أنظمته والقوانين التى تسيطر عليه يجد أن لاشىء فيه إلا ويسير ضمن دائرة من القوانين لا يتعداها ، وأن لكل شىء سببا ، وأن ما يسيطر على أصغر أجزاء المادة يسيطر على أكبرها . فالمادة تتألف من الجواهر الفردة ، وهذه تتألف من كهربائية سالبة تسمى كهرباء ، وكهربائية موجبة تكون النواة أو جزءاً من النواة .

والكهارب تدور حول النوايا (البروتونات والنترونات) فى أفلاك ..،

والذى لا ريب فيه أن هذا الكون لم يوجد من تلقاء نفسه إذ لو كان كذلك لما رأينا فيه هذا النظام وهذا التنسيق ، بل إن هناك قوة خارقة منسقة منظمة لا يحيط بها عقلنا بل هى تحيط بنا وبهذا الوجود من جميع نواحيه ، أوجدت هذا الكون الضخم وجعلته يسير ضمن نواميس ثابتة ثابتة . ومهمتنا نحن البشر أن نزيد معرفتنا بهذه النواميس ونكشفها ، وكلما زدنا معرفة بها زدنا اعتقاداً بقدرة الله الخارقة المنظمة وإيماناً بعظمته وإبداعه ، وظهر لنا بجلاء مقام الإنسان فى هذا الكون الذى لم يخلق باطلا..

إن الإيمان بالله ضروورة عقلية فى عصر الذرة الذى نعيش فيه اليوم ؛ ولا مفر للإنسان العاقل من الإيمان بالله رب الكون والحياة والبشر أجمعين .

ليقل الشيوعيون المحليون ما يقولون ، فإننا لن نترك الإيمان بالله ، لنؤمن بماركس ولينين وستالين وسواهم من طواغيت الشرك والكفر والضلال .

وصدق الله العظيم فيما يقول : قل أغير الله أبغى رباً ، وهو رب كل شىء ، ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون [1] » .

---

(١) ١٦٤ الأنعام .

الفصل الثالث

شريعة التكافل الاجتماعى

« إن الذين يتلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور » - ١٩ فاطر .

الإسلام يحث على العمل ، ويحارب البطالة ، ويفرض ألواناً من المعاملات التى يشترك فيها الأغنياء والفقراء فى ميدان العمل ، وتتاح فيها للفقراء فرصة استغلال مواهبهم استغلالا واسعاً ، كالمزارعة والمساقاة والمضاربة ، وكالشركة ، وكالعمل ، والإجارة ، والوكالة ، وسواها .

فإذا عجز الإنسان عن العمل ، فهناك ألوان من المساعدات الاجتماعية التى تؤمنه على حياته ، كالزكاة ، والصدقة والإحسان ، وكالملاجىء العامة التى تفتح الدولة أبوابها للعجزة والمساكين واليتامى والأرامل ، وكأموال الأوقاف العامة للمسلمين التى تصرف فى وجوه الخير والبر والإحسان ورعاية شؤون الفقراء .

وقرر القرآن الكريم حق الفقراء فى أموال الأغنياء : « والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » . والمال فى يد الأغنياء إنما هو مال الله استخلفهم عليه ، وأوجب رده على عياله من الفقراء .

ويحث الرسول الأعظم على وجوه الخير والبر والإحسان والتضامن الاجتماعى : « من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته » ، « الله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » ، « من مشى فى حاجة أخيه كان خيراً له من اعتكاف سنين » ، « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ، « من لا يرحم لا يرحم » ، « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » : كما أوصى بالجار أشد وصية وآكدها .

ولقد آخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، المهاجرين الفقراء الذين جردوا من أموالهم وأخرجوا من أوطانهم ، والأنصار الذين كانوا يقيمون فى أموالهم وأهليهم وأولادهم . . وكان الإيثار أغلب شىء على المسلمين ، أرأيت عبادة بن الصامت وقد أهديت له هدية ، ومعه فى الدار اثنا عشر من أهل بيته ، فقال : اذهبوا بهذه الهدية إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا ، فذهب بها الوليد بن عبادة فكان كلما جاء أهل بيت قالوا : اذهب بها إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها . حتى رجعت الهدية إلى عبادة ؟

وقرب الإسلام مع ذلك بين الفقراء والأغنياء ، بالزكاة والإرث والوصية ونظام الوقف وسوى ذلك من التشريعات التى تتجه إلى إنقاذ الفقير وتمكينه من الحياة ورفع مستواه فى المجتمع .

وهناك بعد ذلك كله لعلاج الفقر ، والقضاء على الحاجة ، بيت مال المسلمين الذى يلزم بالقيام على شئون الناس ، وخاصة الفقراء لسد حاجاتهم . وكان للفقراء والمساكين والأرامل واليتامى وأبناء السبيل نصيب معلوم يجرى عليهم من بيت المال . كما كان لهم نصيب فى الغنائم و نصيب فى الزكاة .

وكان عمر يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ويقول : « والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله فى هذا المال نصيب ، إلا عبداً مملوكا . ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه » .
وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقسم كل ما يرد إليه من مال على المسلمين بالسوية ، وكذلك عمر . ويروى أن علياً كان يقسم ما فى بيت المال كل جمعة حتى لا يترك فيه شيئا .

وعمر بن الخطاب يقرر فى بعض عهوده رفع الجزية عن كل من يضعف عن العمل من أهل الذمة ، وأن يعطى من مال المسلمين ما يكفيه هو وعياله ما دام بدار الإسلام ، ولقد رأى ذات يوم يهودياً يستجدى ، وعلم أنه ألجىء إلى هذا بسبب الجزية والسن والحاجة ، فأمر برفع الجزية عنه وعن أمثاله وترتيب نفقة جارية

مدة حياته ، وقال : ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه فى هرمه . وفى سفره إلى دمشق أمر بمثل هذا لقوم من النصارى ابتلوا بالجذام فلم يجدوا إلى العمل سبيلا . وكان من هذه السياسة العادلة التى شملت المسلمين واليهود والمسيحيين أنه لم يكن فى عهد عمر الفاروق من يشكو الحاجة ، ما دامت الدولة كانت تسارع لعون العاجز والمحتاج ، وكان الأطفال يعتبرون عاجزين عن العمل ، ولهذا كان عمر يفرض لهم أيضاً من بيت المال ما يكفيهم ، كما يفرض لولى كل طفل رزقاً يعينه على تنشئته وتربيته .

وأخرج الطبرى عن حبيب بن أبى وائل قال، قال عمر بن الخطاب: « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين » . كما قرر عمر بن الخطاب فيما أخرجه الطبرى عن السائب بن يزيد أنه ما من أحد إلا وله فى مال الدولة حق يتقاضاه وفقاً للقرآن والسنة ، « فالرجل وبلاؤه ، والرجل وقدمه ، والرجل وغناؤه وكفايته ، والرجل وحاجته ».

ويقول الإمام ابن حزم فى كتابه « المحلى » : « وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ، ولا فىء سائر أموال المسلمين بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لا بد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة » ، وروى بالسند الصحيح : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » ، ثم يقول : « ومن كان على فضلة ورأى المسلم

أخاه جائعاً عريان ضائعاً فلم يغنه ، فما رحمه » . ويروى أيضاً بالسند الصحيح عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق « أن أصحاب الصفة كانوا ناساً فقراء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس » . ويروى كذلك : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » ، ثم يقول ابن حزم : ومن تركه يجوع ويعرى ـ وهو قادر على إطعامه وكسوته ـ فقد أسلمه . والنصوص من القرآن والأحاديث تكثر جداً .

وينقل عن على بن أبى طالب بسنده: « إن الله تعالى فرض على الأغنياء فى أموالهم بقدر ما يكفى فقراءهم ، فإن جاعوا أو عروا وجهدوا فيمنع الأغنياء ، وحق على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه » . وعن ابن عمر : « فى مالك حق سوى الزكاة » ، وعن عائشة والحسن بن على وابن عمر أنهم قالوا كلهم لمن سألهم : « إن كنت تسأل فى دم موجع ، أو غرم مفظع ، أو فقر مدقع ، فقد وجب حقك » ، وصح عن أبى عبيدة وثلاثمائة من الصحابة أن اجتمعوا فأمرهم أبو عبيدة فجمعوا أزوادهم فى مزودين . وجعل يقوتهم إياها على السواء . فهذا إجماع مقطوع به من الصحابة رضى الله عنهم ، لا مخالف لهم منهم ، « وصح عن الشعبى ومجاهد وطاوس وغيرهم ، كلهم يقول : فى المال حق سوى الزكاة » . ويقول ابن حزم : « ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير ، وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذمى ،

لأن فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع ، فإذا كان كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير . وله أن يقاتل عن ذلك ، فإن قتل فعلى قاتله القود ، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله لأنه منع حقاً ، وهو طائفة باغية . قال تعالى « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » . ومانع الحق باغ على أخيه الذى له الحق ، وبهذا قاتل أبو بكر الصديق مانعى الزكاة » (١) .

ويروى أحمد وأبو داود عن الرسول صلوات الله عليه : المسلمون شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار . وروى البخارى عن جابر ورافع: « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه فإن أبى فليمسك أرضه » ، وروى مثله مسلم عن أبى هريرة ، وروى أحاديث فى هذا المعنى أبو داود والنسائى .. ويروى عن أبى سعيد الخدرى : «من كان معه فضل ظهر فليعد به عمن لا ظهر له ، ومن كان له فضل مال فليعد به على من لا مال له ، فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل » .

فهل بعد ذلك نظام أكمل للضمان والتأمين والتكافل الاجتماعى من هذا النظام ؟

إن الغرب فى القرن العشرين لم يأت بجديد ، وإن أصول حضارة الغرب مأخوذة من مبادىء الإسلام وشريعته الخالدة ، وأعمال خلفائه الأولين ، ومآثرهم فى العدل وسياسة الملك ومعاملة الرعية .

(١) راجع كتاب ابن حزم « المحلى » ص ١٥٦ — ١٥٩ جـ ٦ .

الإسلام وسياسة المال

« . . وآتى المال على حبه ذوى القربى
واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين
وفى الرقاب — ١٧٧ البقرة .

الإسلام هو دين الحياة ، ودين القيمة ، والدين الذى ينظم شئون الفرد والمجتمع على أساس سليم يجمع بين الدين والدنيا ، والمثل الأعلى وواقع الناس .

الإسلام ينظم حيـــاة الفرد على أساس اقتصادى صحيح لا إسراف فيه ولا بخل ، ولا تفريط ولا إفراط ، وينظر إلى المال على أنه وسيلة لا هدف .

فقد خلق الله المال لقضاء الحاجات وبلوغ الآمال ، وأودع فى كل فطرة ما يناسبها من الشعور بما تحتاج إليه ، وبث فى الأعضاء قوى تحركها للسعى فى طلبه والحصول عليه . ثم جعل الإلهام رائد الحيوان الأعجم يرشده إلى وجوه السعى عند الحاجة ويصرفه بعد

انقضائها . وجعل العقل فى الإنسان مكان الإلهام فى الحيوان ، وعززه بالشرائع والأديان . أو يعجز الإنسان أن يكون كالحيوان الأعجم فى باب الاقتصاد ؟ ولقد أمرنا الله تعالى بالاقتصاد فقال : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً » ، وقال : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ، ثم قال فى آخر الآية : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما ».

والاقتصاد فى المال أن يجعل الإنسان فى ماله جزءاً للإنفاق وجزءاً للادخار : أما ما يجعله للإنفاق فيجب أن يكون معتدلا ملائماً لدرجة معيشته ، وافياً بما عليه من الحقوق ، حافظاً لناموسه وكرامته . فإن زاد كان مبذراً مأزوراً . قال تعالى : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » . وإن نقص كان مقتراً بخيلا محتقراً ذليلا ، قال تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « ما أحسن القصد فى الغنى ، وما أحسن القصد فى الفقر ، وما أحسن القصد فى العبادة » .

مهاجرون وأنصار

والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم
يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم
حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو
كان بهم خصاصة .

(الحشر)

قال الله تعالى فى كتابه الحكيم فى قصة الهجرة ونصره لرسوله : « إلا تنصروه فقد نصره الله . إذ أخرجه الذين كفروا ، ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » ، وقال فى شأن الأنصار : « واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

كانت هجرة الرسول صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة ، إيذاناً ببدء عصر جديد فى تاريخ العالم ، وعاملا قويا فى رقى الإنسانية ونهضتها ، وحداً فاصلا بين الوحشية والمدنية ، والعبودية والحرية ، والجهل والمعرفة ، والظلام والنور .

فى المدينة بعد الهجرة بقليل ، بدأ الرسول يبشر بحقوق الإنسان ويرفع من كرامته فى الحياة ، ويعمل على تحرير الطبقات والأجناس من الرق والاضطهاد والاستعباد والاستغلال ، ويفتح الأبواب أمام المتنافسين من ذوى الكفاية من كل أمة ولون ، ويشرع أصول الحكم العادل ، ويضع مناهج التقدم الروحى والاجتماعى ، ويعلن أن للمحكومين ما للحاكمين ، وأن الدولة إنما وجدت لخدمة الفرد . . ووجد الرسول نفسه أمام ثلاث طوائف فى المدينة :

أولاها — طائفة المهاجرين الفقراء ، الذين ضحوا بوطنهم ومالهم وتجارتهم طلبا للحرية ، وفراراً من الطغيان ، فهاجروا من مكة إلى المدينة . فرادى وجماعات ، بعد هجرة محمد عليه الصلاة والسلام . وكان أغلبهم يعمل بمكة فى التجارة يكسب منها الأموال الطائلة ، ويصفهم الله تعالى فى القرآن بقوله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » ، ويصف الطبقة التى تلتهم فى الهجرة بقوله : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم .

والطائفة الثانية ـ هم لذين أحبوا الرسول ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه : من الأوس والخزرج سكان المدينة ، وكانت مهنة أكثرهم الزراعة وتعهد الثمار والأشجار والفاكهة، وكانوا ذوى

عدد وثروة ، ووصفهم الله تعالى بقوله : « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولوكان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

والطائفة الثالثة - يهود المدينة ، الذين طالما أشعلوا نار الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج ، وسخروا برسالة محمد وبأصحابه.

مجتمع كهذا المجتمع ، فيه الفقراء والأغنياء » والمفسدون والمتآمرون، لابد فيه من بناء جديد « وحركة بعث وتجديد، فماذا فعل محمد صلوات الله عليه ، بدأ الرسول يعالج هذه المشكلات بالهام سديد ، وعقل حصيف ، وسياسة حكيمة :

طمأن اليهود على حرياتهم الدينية والشخصية ، وتعهد بحمايتهم والدفاع عنهم ، فى وثيقة سياسية بارعة ، وادع فيها اليهود وعاهدهم وحذرهم ليضمن سلامة الدولة وأمنها .

والتفت إلى علاج مشكلة التفاوت الشديد فى الثروة، بين الاغنياء والفقراء ، بين الأنصار والمهاجرين ، فآخى بينهم إخاء فريدا فى تاريخ الانسانية ، إخاء مودة وتعاون وإخلاص ، فكان يأخذ بيدى المهاجرى والأنصارى ويقول : « تآخيا فى الله أخوين » . قال ابن هشام : آخى رسول الله صلى عليه وسلام بين المهاجرى والأنصارى : فقال : تآخوا فى الله أخوين أخوين ، فكان الرسول وعلى بن أبى طالب أخوين ، وأبو بكر وخارجة بن زهير أخوين،

وحمزة أسد الله وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين، وجعفر ابن أبي طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وسوى هؤلاء وهؤلاء.

كان الرجل من المهاجرين يرتبط برباط الأخوة بآخر من الأنصار، وصار لكل انصاري أخ من المهاجرين ، شاطره داره وماله وإبله وتجارته لهذا نصف ولهذا نصف ، وكان إذا توفى أحدهما ورثه أخوه ـ في العقيدة لا في النسب ـ إلى أن نزلت آية الميراث فجعل الإرث بين ذوي الأرحام والقرابة .

وهكذا تنازل الأنصار الأغنياء ، بوازع من دينهم وضميرهم وحبهم وطنهم لإخوانهم المهاجرين الفقراء عن نصف ما يملكون من ثروة وعقار وأرض ، دون تردد أو إبطاء .

وجدت مشكلة أخرى ، فقد كان الأنصار أصحاب زراعة ، بينما المهاجرون أهل تجارة لا عهد لهم بسواها من الحرف ، فماذا يفعلون بالأرض التي أصابتهم ؟

هنا تجلت عظمة إيمان الأنصار ، وجلال أخلاقهم، وإيثارهم على أنفسهم ، فقد أصروا على أن يزرعوا أرضهم وأرض المهاجرين، بأنفسهم ويقسموا محصولها مناصفة فيما بينهم ، ويكفوهم العمل والمؤونة ، تعاونا منهم في بناء الأمة والمجتمع .

ومع ذلك فقد عمل كثير من المهاجرين في الزراعة ، كأبي بكر وعمر وعلي وسواهم. وعمل آخرون في التجارة ونجحوا فيها نجاحا عجيبا،

كعبد الرحمن بن عوف الذى عرض أخوه الأنصارى سعد بن الربيع أن يشاطره ماله فأبى ، وطلب إليه أن يدله على السوق فتاجر وربح ، ولما توفى وترك ثروة واسعة قال أناس من أصحاب رسول الله : إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك ، فقال كعب سبحان الله : ولم تخافون عليه ؟ كسب طيباً ، وأنفق طيباً ، وترك طيباً .

ولم يكن هذا هو العلاج الوحيد الذى عالج به الرسول الكريم مشكلة الفقر فى المدينة ، بل خص المهاجرين ببعض الغنائم كأموال بنى النضير ، فلم يعط الأنصار منها شيئاً ، إلا ثلاثة نفر محتاجين ، وقال لهم إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وداركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة ، فقال الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا ودیارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها . . وهكذا كانت يد الأنصار جليلة على المهاجرين ، حتى قالوا فيهم : ما رأينا مثل أنصار المدينة ، لقد أحسنوا مواساتنا ، وبذلوا الكثير ، وأشركونا فى المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

وحض الرسول على المحبة والتعاون والرحمة ، وعلى البذل والسخاء والإيثار والصدقة والإحسان ، وإطعام الجائع ، ومساعدة المحتاج وإغاثة الملهوف ، وشرع فريضة الزكاة ، وجعل بيت المال فى خدمة الفقراء . وكان الرسول يضرب فى ذلك أروع الأمثال ، ويؤثر على نفسه .

قالت عائشة : ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا .

وذهب الرسول يعود ابنته فاطمة فى بيت زوجها على بن أبى طالب فقال : السلام عليك يا بنتاه ، كيف أصبحت ؟ قالت أصبحت والله وجعة ، وزادنى وجعاً أنى لست أقدر على طعام آكله ، حتى أجهدنى الجوع ، فبكى رسول الله ، وقال لا تجزعى يا بنتاه ، فوالله ما ذقت طعاماً منذ ثلاث ، وإنى لأكرم على الله ، ولو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ، أبشرى ، فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة .

وحمل إليه صلوات الله عليه فى يوم تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها وعاد لا يمسك منها درهما .

وكان المسلمون من الأنصار والمهاجرين يضربون المثل رائعاً كريماً فى فضيلة الإيثار ، نزل برسول الله ضيف ، فلم يجد عند أهله شيئاً ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته أن تطفىء السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل حتى أكل الضيف الطعام ، فلما أصبح قال رسول الله : لقد عجب الله من صنعكم الليلة إلى ضيفكم » .

وأهديت لعبادة بن الصامت هدية ، وإن معه فى الدار اثنى عشر من أهل بيته ، فقال عبادة : اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج

إليها منا ، قال الوليد بن عبادة : فأخذتها فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون : اذهبوا بها إلى آل فلان ، فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية ثانية إلى عبادة .

وحرم رسول الله الاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل . ودعا الأغنياء إلى التنازل لإخوانهم الفقراء عن بعض يملكون من أرض هبة ومنحة ، فقال : من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه ، وقال : من كانت له أرض فليزرعها أو ليحرثها أخاه فإن أبى فليمسك أرضه ، وقال : لأن يمنح الرجل أخاه أرضه خير له من أن يأخذ عليها خرجا معلوما . ودعا إلى الرحمة والبر والخير والتعاون والمساواة .

هذا هو الرسول الكريم ؛ وهؤلاء هم المسلمون حقاً ، من الأنصار والمهاجرين ، من بناة مجدنا الخالد ، والدعاة إلى خير الدنيا والآخرة ، وممن لم يفتنهم المال ، ولم يلههم زهرة الحياة الدنيا ، وكانوا مع الله فكان الله معهم ، وممن أدوا الحقوق ، وجعلوا أنفسهم فى خدمة إخوانهم فى الله والوطن .

وما أحوجنا اليوم أن نسير على ضوئهم ، ونستهدى بهدى رسولنا الأعظم ، ونساعد الدولة فى خدمة الشعب وبناء الأمة وضمان الحياة الكريمة للفقراء ، وأن يؤثر أغنياؤنا الفقراء على أنفسهم ، ولا يبخلون بمالهم فى سبيل الله والمعروف .

وإنى لا أجد فى ختام هذه الكلمة أبلغ من قول الإمام أبى حامد الغزالى فى « الإحياء » :

« إن على الإنسان فى ماله أن يعرف مقصود المال » وأنه لماذا خلق؟ وأنه لم يحتاج إليه حتى يكتسب ، فلا يحفظ إلا قدر الحاجة ، ولا يعطيه من همته فوق ما يستحق . وعليه أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام ، كمال السلطان ، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة فى المروءة ، كالهدايا التى فيها شوائب الرشوة ، وأن لا يستكثر من المال ولا يستقل منه ، بل القدر الواجب ، ومعياره الحاجة ، والحاجة ملبس ومسكن ومطعم .

الحرب الخالدة المقدسة

« والذين فى أموالهم حق معلوم
للسائل والمحروم »   قرآن كريم

من بين الذكريات الخالدة على الزمن ، الباقية على مر الأجيال ، التى تهز مشاعر الإنسانية هزاً عنيفاً متواصلا ، ذكرى هذه الحرب المقدسة التى أعلنها محمد صلوات الله عليه على الفقر ، عدو البشرية اللدود ، وخصمها الجبار ، الذى حارب الإنسان فى حياته وسعادته وأمنه دون تردد أو إشفاق .

والفقر كثيراً مايكون سببه سوء توزيع الثروة بين الناس ، أو الجهل باستنباط الثروة واستغلالها ، أو جدب الأرض وقلة خيراتها .

ولقد نظر محمد صلى الله عليه وسلم إلى مشكلة الفقر باهتمام شديد ، وسعى بنجاح تام إلى القضاء على هذه المشكلة بعقل المشرع وحكمة المصلح وإلهام الرسول ،مع صعوبة التغلب على الفقر فى بيئة كبيئة الصحراء ، وفى مجتمع لا يعرف إلا العصبية والفروق الظالمة بين طبقات الأغنياء والفقراء .

كان الناس ينظرون إلى المال على أنه هو الوسيلة لحياة الرفاهية والترف ، ولاستعباد الفقراء ، وتسخير الضعفاء ، فحارب محمد صلى الله عليه وسلم هذه الفكرة الخاطئة ، وأعلن أن المال إنما هو سبب لعمل الخير والبر والرحمة والمعروف ومواساة المنكوب وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع وكسوة العارى وإسعاد الناس ، ووديعة الله فى أيدى الأغنياء ، ومال الله استخلفهم عليه ، وجعل من سنة الإنسان المهذب فى الحياة الإيثار لا الأثرة ، والإعطاء لا الأخذ . والقناعة والرضا والشكر لا الجشع والطمع والسخط والجحود .

وكان الأغنياء لا يعرفون فى المال حقوق الله والفقراء والمساكين ، فطالبهم محمد صلى الله عليه وسلم بما طالبهم به القرآن الكريم فى قول الله تعالى : فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل،ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئكهم المفلحون» ، ونهاهم عن البخل والإمساك والشح والتقتير ، فقال صلوات الله عليه : « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » ، وقال الله تعالى : ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، ومدح المؤمنين الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، وفرض حق الضيف وابن السبيل ، وجعل صلى الله عليه وسلم البر واجباً ، والإحسان فريضة ، والصدقه شريعة اجتماعية . والزكاة أمراً محتوماً لمصلحة المجتمع كله . ونظم الوحدة الاجتماعية بين الناس ، وجعل أساسها الأسرة ،

وفرض على الرجل حقوقا يؤديها من ماله لأسرته وأقاربه وأهله ، وطالبه بأن يرعى أبناءه حق الرعاية ، ويوفر لهم بعمله وجده وسائل الحياة الكريمة . وحث على القناعة والاقتصاد ، فقال صلوات الله عليه : « طوبى لمن قنع بالإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به » ، وقال : « ما عال من اقتصد » .

وشرع الله لنبيه الكريم شرائع الزكاة والصدقات ، فدعا إليها الرسول صلى الله عليه وسلم وحض عليها ونادى بها ، وسن كذلك تشريعات العمل والإجارة والمزارعة والوصية والهبة والوقف والرهن والوديعة والقرض وعقود الشركات والمضاربة وسواها ، لكى تتداول الأيدى المال ، ويعمل فيه الفقراء والأغنياء قصداً للربح والكسب الحلال ، ومن ثم حرم الإسلام ورسوله الكريم الربا والاحتكار والاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل ، وقرر محمد صلى الله عليه وسلم حرمة المال ، فقال : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » ، ودعا إلى اكتساب الأموال من طرقها المشروعة فقال : « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار » . وعمل على حفظ كرامة الفقراء ففضل صدقة السر ، وحض على ترك المن والأذى وكره السؤال وحرمه عن غير حاجة ، وجعل اليد العليا خيراً من اليد السفلى . . وحبس محمد صلى الله عليه وسلم الأموال — التى تؤخذ من الفىء ، والخراج ، والجزية ، والغنائم والعشر والركاز وسواها — على مصالح الفقراء والتمكين لهم فى الحياة والمعيشة ، وحرر رقيق الأرض من

العبودية ، وطالب باحترام حقوق الرقيق الذى أسر فى حرب مشروعة ، وبالعمل على تحريره ، كما حرر العامل والخادم والمرأة من القيود والأغلال .

ودعا إلى توزيع الثروة توزيعاً عادلا بإخائه بين الأنصار والمهاجرين ، وبما فرض من حقوق مشروعة للفقراء فى أموال الأغنياء ، وبدعوته إلى العمل وحضه عليه حتى يأخذ الفقير حظه الكامل فى الحياة مع مرور الأيام ، وبتقسيمه العادل للميراث بين أولى الأرحام ، وبغير ذلك من أسباب التمكين للفقير والمسكين والمحروم ، ونهى عن كنز المال دون أداء حقوقه وكره الاستكثار منه والتكالب على جمعه ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال : « إلق الله فقيراً ولا تلقه غنياً » .

وحث على الجود والبذل والسخاء ، وكان صلى الله عليه وسلم كما وصفه على أجود الناس كفاً ، وكما وصف فى حديث البخارى « فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة » وتقول عائشة رضى الله عنها : ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا » . ودعا الناس إلى التعاون على دفع الضر عن الفقراء فقال : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ، ونهى عن المحاباة فى كل شىء حتى فى اختيار الموظف ، فقال صلوات الله عليه : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم

أحداً بمحاباة فعليه لعنة الله ، لايقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله النار » . كما نهى عن الخيانة فى الأموال العامة فقال : « من استعملناه على عمل ورزقناه فما أخذ بعد ذلك فهو غلول ، أى خيانة » .

ولقد حبب محمد صلى الله عليه وسلم الناس فى الكسب الحلال المشروع ، ودعاهم إلى استنباط المجهول من وسائل الثروات ، وقال لهم : أنتم أعلم بشئون دنياكم ، وجعل بيت المال فى خدمة الناس ، والفقير من بينهم خاصة ، ولم يكن لرسول الله بيت مال يضع فيه الأموال ، وإنما كان يضعها فى بيته وبيوت أصحابه ، وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان له أموال الصدقات ، ومعيقب بن أبى فاطمة وكعب بن عمر يكتبان المغانم ، وكان حذيفة بن اليمان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم خرص تمر الحجاز . وكان يتخير ولاته وعماله ويقتصد فى رزقهم ؛ فاستعمل عتاب بن أسيد الأموى والياً على مكة وجعل رزقه كل يوم درهماً ، وصالح صلوات الله عليه أهل فدك على نصف ثمارهم وصرفها على الفقراء ، وكان بعمله الشريف ودعوته الكريمة يقوى بذور الرحمة والخير والتعاون والمودة والإخاء بين الناس حتى يستطيع المسلمون التغلب على آثار الجدب الذى كان غالباً على جزيرة العرب .

وقد دعا صلى الله عليه وسلم إلى اصطناع الأيادى عند الفقراء يقول : « أكثروا من معرفة الفقراء ، واتخذوا عندهم الأيادى ،

فإن لهم دولة ، قالوا : يارسول الله ، وما دولتهم ! قال : إذا كان يوم القيامة قيل لهم : انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا ، فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة» وجعل الرسول الأكرم فى كل معروف وكل عمل صدقة فقال : كل معروف صدقة ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة ، وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة ، والدال على الخير كفاعله، والله يحب إغاثة اللهفان » ، ورفع من منزلة الفقراء ولم يجعل المال أساساً للحكم على الأشخاص .

ولقد قرر محمد صلوات الله عليه حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة ، وحارب الرق والاستعباد والاستغلال والفوارق الاجتماعية الظالمة بين الناس ، ورفع من الفقراء والمستضعفين ذوى الكفايات والمواهب حتى بلغوا أعلى المنازل فى الدولة الإسلامية . مما قلب الأوضاع فى توزيع الثروات بين الناس وانصاف الفقراء . وفتح باب الأمل الواسع على مصراعيه أمامهم يدخلونه بقوة وعزم وكرامة وتفاؤل بالحياة .

وهكذا كان محمد صلوات الله عليه الإنسانية فى أروع صورها ، والمثل الأعلى فى أمجد مظاهره ، والقائد المظفر الذى خاض معركة السلام وانتصر فيها ، والنور الأبدى الخالد الذى هدى الحياة وأخرجها من الخوف والقلق والفوضى ، إلى الأمن والهدوء والاستقرار . وكانت حياته كلها كفاحا مجيداً فى سبيل الله

والحق والمعروف ونقرير حريات الفقراء وكراماتهم ، وكانت جهاداً صادقاً وجهته الخير وإسعاد الناس ، ومن أجل ذلك توج هذا الجهاد بالنصر ، وهزت ذكرياته مشاعر الناس والجماعات والشعوب فى كل مكان وجيل ، ولا تزال هذه الذكريات حديث الدنيا ، ونشيد الحياة ، وفرقان البشرية الظامئة إلى نبع هذا الوحى المقدس والناموس السماوى الحكيم .

لقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل الفقراء والأغنياء إخواناً متحابين متآخين متعاونين . وأن يقيم فى المجتمع الإسلامى اشتراكية عادلة تؤمن بالمبادىء الروحية والمثل العليا وتجعلها أساساً من أسس الاقتصاد التعاونى الجماعى فى الدولة الإسلامية الناشئة ، واستطاع بما بذره من بذور الخير فى الأرض أن يقضى على الفرقة والخصومة والجريمة والثورة والاضطراب والقلق بين الطبقات . . وكانت ثورة محمد الكبرى من أهدافها تحرير الإنسان من الفقر والعوز والحاجة والخوف ، وكفالة حريته وحقه فى الحياة الهانئة الكريمة وهدم كل الصروح التى أقيمت ظلماً وبهتاناً بأيدى الإقطاعية والإقطاعيين الجائرين .

ولا تزال هذه المبادىء الكريمة ينطق بها كتاب الله وسنة رسوله ، ويقوم عليها تراثنا الروحى الخالد ، الذى يعد مفخرة من مفاخر البشرية فى نهضتها وتوثبها إلى الكرامة والحرية .

العمل فى شريعة الاسلام

« ياأبت استأجره ، إن خير من استأجرت
القوى الأمين » ٢٦ سورة القصص

للعامل مكانة كبيرة فى الأمة ، فهو دعامة الانتاج ، وعنصر من عناصر النشاط الاقتصادى ، واليد المحركة لمرافق الدولة .

وقديماً نشأ كثير من الأنبياء فى بيئة الأعمال ، وتدرج الله بهم من حياة العمال إلى حياة النبوة والرسالة ، فموسى عليه السلام قضى ثمانى حجج أو عشراً عاملا فى مال شعيب، وداود كان يعمل ويأكل من عمل يده ، فكان يقوم بصناعة الدروع ويعيش على ما يكسبه من هذه الصناعة ، ومحمد رسول الله صلوات الله عليه قضى صدر شبابه وطرفا من أيام رجولته عاملا فى مال خديجة سيدة قريش ثروة وجاها . وقد عنيت الأديان القديمة والقوانين الحديثة بتشريعات العمل وقوانين العمال .

وفى الشريعة الإسلامية عناية بالعامل وحقوقه ، وتتجلى هذه العناية بوضوح فى كثير من مسائل التشريع الإسلامى ، والأصول العامة التى تهدف إليها الشريعة الإسلامية فى هذا الباب يمكننا أن نلخصها فيما يلى :

أولا : حفظ كرامة العامل وإنسانيته وشخصيته فى الحياة ، فالعمل ليس ذلا وهواناً . بل هو وسيلة الحياة الشريفة لكثير من أفراد الأمة . وهو ركن الحياة الاقتصادية ، لذلك كان من الحتم أن يقدر أصحاب الأموال شخصية العامل وكرامته وإرادته ويحافظوا عليها لا أن يضعوه موضع الذليل المسخر أو العبد المهان ، وفى مبادىء الإسلام نصوص كثيرة تؤيد هذا ، وكان كثير من العمال يشترطون على صاحب العمل ذلك ، كما يروى أن قوماً ضلوا الطريق فاستأجروا أعرابياً ليدلهم عليه ، فقال : إنى والله لا أخرج معكم حتى أشترط لنفسى قالوا . فماذا تشترط لنفسك قال « يدى مع أيديكم فى كل ماتتناولون وتعملون ، وذكر والدى عليكم محرم » .

ثانياً : تقدير مجهود العامل تقديراً قائماً على الإنصاف وعلى الحدب عليه ، فلا يجوز فى نظر الشريعة الإسلامية التى توجب معونة العامل أن ينتهز أصحاب الأعمال فرصة حاجته الشديدة إلى العمل فيبخسوه حقه ويغبنوه فى تقدير أجره الذى يستحقه نظير عمله ، ولا بد أن يكون ضامناً لنتيجة مجهوده وكده ، ولذلك منعت كثيراً من المعاملات التى لا يتحقق فيها ضمان العامل لأجره عند عقد العمل ، وهذا هو علة منع جواز إعطاء الأرض للعامل يزرعها على أن يكون أجره مما يخرج منها ، لجواز أن لا تخرج الأرض محصولا ، وإن كان كثير من الشرعيين الإسلاميين أجازوه لما فيه من تبادل المنفعة بين الناس ، وللثقة الغالبة بإعطاء الأرض ثمراتها، كما لا يجوز أن تكون أجرة العامل فى عقد العمل مجهولة القدر ،

بل لا بد أن تكون معلومة معينة ليعمل العامل على أساس واضح وليرفع عنه الحيف ، وفى الحديث : « من استأجر أجيراً فليعلمه أجره » .

وتحث الشريعة الإسلامية دائماً أصحاب الأموال على ترك الطمع فى أجرة العمال وعلى أدائها لهم كاملة ، وتعدهم بذلك خير الدنيا والآخرة . وفى الحديث عن رسول الله صلوات الله عليه « أن ثلاثة أووا إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفجرت الصخرة . فكان مما دعا الله به أحدهم أن قال : اللهم إنى استأجرت عمالا فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاء بعد حين فقال : ياعبد الله أد إلى أجرى فقلت له : كل ماترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم ، فقال : ياعبد الله لا تستهزىء بى ، فقلت : إنى لا أستهزىء بك ، فأخذه كله فلم يترك منه شيئا »

وتلزم الأجرة بتمام العمل ، أو بشرط العامل دفعها قبل العمل ، بشرط التمكن من الحصول على المنفعة ، أى العمل المقصود .

ثالثاً : عدم إرهاق العامل وإعناته فى العمل . وفى الحديث الشريف : « ولا تكلفوهم مالا يطيقون فإن كلفتموهم فأعينوهم » وقال شعيب لموسى عليهما السلام حين اتفقا على أن يعمل له موسى فى ماله : « وما أريد أن أشق عليك » .

. . فإذا أدى تصرف أصحاب الأموال إلى إرهاق العامل إرهاقا يضر بصحته فللعامل حق فسخ العقد ، وله أن يرفع الأمر إلى المسئولين لدفع هذا العنت ، . . رفع الأمر إلى أولى الأمر ، والتحكيم حين الخلاف، وإنصاف من هو بحاجة ماسة إلى الإنصاف، قاعدة مقررة فى شريعة الإسلام .

رابعاً : حرية العامل فى الأعمال المالية أحياناً ، فلا يجوز أن يحجر رب المال فى حرية العمل على من وكل إليه استثمار ماله ، فلا يصح أن يشترط عليه أن لا يتعامل إلا مع أناس معينين أو فى مكان خاص ، وذلك لأن المستثمر مادام مأنوساً فيه الكفاية والمقدرة على الاستثمار فلا يصح أن تقيد مواهبه ؛ لأن هذا التقييد يكون أحياناً عائقاً دون غاية مايريد من الحرية فى الاستثمار أو معطلا لمواهبه الاقتصادية فى سبيل الربح .

خامساً : دعوة الأغنياء الذين لا يقدرون على استثمار أموالهم ، إلى إعطائها للقادرين على ذلك ممن ليس لهم مال ، بشرط أن يؤنس فيهم الأمانة وحسن التصرف والصدق والإخلاص ، قضاء على مشاكل البطالة ، ولذلك شرعت الشريعة الإسلامية تشريعات كثيرة من هذا القبيل كالمزارعة والمساقاة وسواهما .

سادساً : العامل ليس ضامناً للمال إذا هلك فى يده بدون تعد منه أو تقصير فى حفظه ، أما إذا هلك بتعديه فعليه الضمان وهو مسئول ، فإذا شرط رب المال على العامل أن يكون ضامناً

لرأس المال إذا هلك فى يده بدون تعد أو تقصير فسد عقد العمل .

سابعاً : حق العامل فى فسخ العقد :

للعامل الحق فى فسخ عقد العمل فى أحوال كثيرة . منها : أن يصيبه مرض يحول بينه و بين المضى فى العمل أو أن يكون وقت العقد صبياً مميزاً ثم أدركه البلوغ ، أو أن يشترط رب المال عليه ضمانه رأس المال إذا هلك فى يده ، أو أن يخل رب المال بشرط من شروط عقد العمل ، إلى غير ذلك من المبررات .

ثامناً : العامل وحق التعويض :

وللعامل الحق فى أخذ تعويض من ربّ المال فى بعض أحوال ، منها :

(ا) أن يتعدى عليه رب المال فيتلف عضواً من أعضائه مثلا .

(ب) أو أن يكون العامل لم يبلغ سن البلوغ بعد ، فإذا أصابه ضرر أو هلك أثناء عمله الذى استؤجر له فإن المستأجر يكون مسؤولا عنه ، فإذا قتل الصبى خطأ كأن وقعت عليه جدران المصنع الذى يعمل فيه فديته على عاقلة رب المال وعلى رب المال الأجر الذى كان يستحقه المقتول . وإذا أصيب بشىء من الضرر كان عليه التعويض ، أما إذا كان العامل رجلا عند عقد العمل فليس له حق التعويض لأنه مميز مسئول عن نفسه ، وقد قبل العمل بعد أن رآه وعرف تبعاته ، وإن كان من الإحسان فى المعاملة مساعدة رب المال بأداء تعويض مناسب لما أصابه ، ولولى الأمر

أن يحكم بما يراه من ذلك التعويض . وللإحسان فى المعاملة فى الإسلام نصيب كبير .

تاسعاً : لا يصح لرب المال أن يعقد عملا مع صبى غير مميز ولا مع مجنون . لأنهما لا يعرفان التبعات ولا تلزمهما مسئولية ، حيث لم يدركا حد التمييز .

عاشراً : ليس لرب المال أن يقصى العامل عن عمله إذا نقصت مقدرته على الإنتاج بمرض لحقه من جراء العمل أو بسبب هرم أو شيخوخة لحقته بعد أن قضى شبابه وأوقات نشاطه الحيوى فى العمل لرب المال .

ويرمز إلى هذه القاعدة حديث عن رسول الله صلوات الله عليه معناه ، أن رجلا أرهق جملا له فى العمل فهرم فاراد أن يذبحه ليستريح من عبء مؤونته ، فقال صلوات الله عليه : أكلت شبابه حتى إذا هرم أردت أن تنحره ، فتركه الرجل .

الحادى عشر : حق العامل فى الراحة الأسبوعية .

فى الفقه الإسلامى لو استأجر رجل يهودياً شهراً كاملا كانت أيام السبوت مستثناة من العمل . هذا هو الحكم والعامل يهودى ، وكذلك إذا كان نصرانياً فله أجازته الأسبوعية (الأحد) . . . فما بالك به لو كان مسلما ؟ .

هذه هى بعض حقوق العامل التى يقرها التشريع الإسلامى وينفذها ، ولكن الواجب على العامل بعد ذلك كثير .

الاسلام والعدالة

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان »

يقول الإعلان العالمى الأخير لحقوق الإنسان ، الذى وضعه أعلام الفكر البشرى فى القرن العشرين ، ما نصه :

« لكل متهم بجرم الحق فى أن تفرض براءته ، حتى يثبت جرمه قانوناً فى محكمة علنية ، تؤمن له فيها جميع الضمانات الضرورية للدفاع عن نفسه » .. وهذا هو نفس ما أوجبه الإسلام من نحو أربعة عشر قرنا من الزمان ، من أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته ، ومن عدالة القضاء ، وحق المتهم فى الدفاع عن نفسه .

يقول عمر بن الخطاب من رسالته إلى أبى موسى الأشعرى حين ولاه قضاء البصرة ، أى من نحو ألف وثلاثمائة وستين عاما هجريا تقريباً :

« أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة . وسنة متبعة ، آس - أى سو - بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .. الخ » :

ويقول على من عهده إلى الأشتر النخعى والى مصر من قبله :

« أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة هلك ومن لك فيه هوى من رعيتك ، فإنك إلا تفعل تظلم ؛ ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أرخص حجته ، وكان لله حربا ، حتى ينزع ويتوب ، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله ، وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم .. واختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ، ممن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحكه الخصوم ، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه . . أوقفهم فى الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأسرعهم عند اتضاح الحكم . ممن لا يزدهيه إطراء ، ولا يستميله إغراء ، ثم تعاهد قضاءه . أكثر له فى البذل مما يزيل علته ، وتقل معه حاجته إلى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك . ليأمن بذلك اغتياب الرجال له عندك « فانظر فى ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً فى أيدى الأشرار ، يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا » .

وعن على بن أبى رافع ، قال : « كنت على بيت مال على ابن أبى طالب وكاتبه ، فكان فى بيت ماله عقد لؤلؤ كان أصابه يوم البصرة ، فأرسلت إلى بنت على ابن أبى طالب ، فقالت لى : إنه قد بلغنى أن فى بيت مال أمير المؤمنين عقد لؤلؤ ، وهو فى يدك ، وأنا أحب أن تعيرنيه أتجمل به فى يوم الأضحى ، فأرسلت

إليها عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام يا بنت أمير المؤمنين ، فقالت نعم : « عارية مضمونة مردودة بعد ثلاثة أيام ، فدفعته إليها ، وإذا أمير المؤمنين رآه عليها فعرفه ، فقال لها : من أين جاء إليك هذا العقد ؟ فقالت استعرته من أبى رافع خازن بيت مال أمير المؤمنين لأتزين به فى يوم العيد ثم أرده . فبعث إلى أمير المؤمنين ، فجئته ، فقال لى : أتخون المسلمين يا ابن أبى رافع ، فقلت معاذ الله أن أخون المسلمين ، فقال : كيف أعرت بنت أمير المؤمنين العقد الذى فى بيت مال المسلمين بغير إذنى ورضاهم ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين : إنها ابنتك ، وسألتنى أعيره لها تتزين به ، فأعرتها إياه عارية مضمونة مردودة على أن ترده سالماً إلى موضعه .. فقال : رده من يومك ، وإياك أن تعود إلى مثله ، فتنالك عقوبتى ، ثم قال : ويل لابنتى ، لو كانت أخذت العقد على غير عارية مردودة مضمونه ، لكانت إذن هاشمية قطعت يدها فى سرقة ، فبلغت مقالته ابنته ، فقالت له : يا أمير المؤمنين : أنا ابنتك وبضعة منك ، فمن أحق بلبسه منى؟ فقال لها : يابنت ابن أبى طالب : لاتذهبى بنفسك عن الحق ، أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزين فى مثل هذا العيد بمثل هذا ... فقبضته منها ، ورددته إلى موضعه» .

وكتب عمر إلى عامله أبى موسى الأشعرى : قد بلغ أمير المؤمنين أنه نشأ لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها . فإياك ياعبد الله أن تكون البهيمة التى مرت بواد خصب ، فلم يكن لها همة إلا السمن ، وإنما حتفها

فى السمن . واعلم أن للعامل مرداً إلى الله ، فإذا زاغ العامل زاغت رعيته ، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته .

ويروى أن أبا يوسف حين حضرته الوفاة قال : « اللهم إنك تعلم أنى لم أمل فى قضائى إلى أحد الخصمين حتى بالقلب ، إلا فى خصومة النصرانى مع الرشيد ، ولم أسو بينهما ، وقضيت على الرشيد ، ثم بكى .

وهناك مآثر مروية كثيرة لقضاة المسلمين وخلفائهم فى تحرى العدالة ، وإنصاف المظلوم ، وهى مفاخر تشهد بعدالة الإسلام ، وعظمة مبادئه ، وسمو أهدافه ، وجلال غاياته .

إن العدالة فى الإسلام لم تقف عند غاية ، ولم تنته إلى حد ، ولم يستثن من حكامها فرد أو طائفة أو عنصر أو شعب . ولا اعتبار الفتح والغلبة والسيادة .

عدالة العالم فى حاجة إليها الآن . لتقضى على الفوضى ، ويشيع الأمن والسكينة والهدوء والنظام والرضى ، وينبعث الاطمئنان النفسى فى كل إنسان ، وما أجل قول الله تعالى : « يايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين» ، وقوله : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» ، وقوله : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ». وما أجل قوله تعالى فى الحديث القدسى : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى ،

وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا » . ولما قال أعرابى لرسول الله اعدل ، قال له : ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل . ولما قال له أعرابى آخر : ومن أحق بالعدل من رسول الله ؟ قال : صدقت ، ومن أحق بالعدل منى ؟

نهاية الكتاب

« الرد على المشركين » هذا الكتاب الذى أضعه بين أيدى القراء ، يتناول كثيراً من أصول الدراسات الإسلامية ، ويبين حقائق كبيرة الأهمية فى حياة الإنسان والمجتمعات والشعوب على طول الأجيال والقرون .

ولقد فندت فيه الكثير من أكاذيب الشيوعيين ، مشركى اليوم، الذين يحاربون الأديان والرسالات ، وينكرون وجود الله ويهرفون بما لا يفهمون ، كما شرحت فيه كثيراً من حقائق الإسلام وأصوله ، وخاصة فى الجانب الاقتصادى ، ليتضح للشباب الإسلامى أن ديننا الخالد السماوى العظيم أعرق أصلا ، وأثبت قدماً فى حرب الفقر ، وعلاج مشكلات المجتمع ، وأنه سبق المذاهب الأخرى، وحل مشكلات الطبقات الفقيرة والمحرومين، قبل ماركس وسواه بعشرات القرون ، أعدل حل ، وبأوسط رأى ، ولأكرم مذهب ووجهة .

إن الإسلام ديننا السماوى الكريم ، يغنينا فى حاضرنا ومستقبلنا ، كما أغنانا فى ماضينا ، عن المذاهب الشيوعية الإلحادية ، التى تزعم أنها تحارب الفقر ، وتقضى على مشكلات الحرمان ؛ وباسم هذه الدعاية تريد أن تنقلنا من ساحة الإيمان إلى

حظيرة الشرك والإلحاد ، وتريد أن تجعلنا عبيداً لماركس وأفكاره الآثمة ، وتريد أن تستعيض بالله إلهاً آخر مخيفاً رهيباً اسمه « الماركسية » والبلشفية » و « اللينينية » ، إلى آخر هذه الأسماء .

ونحن هنا نقول ما قاله القرآن الكريم ، كتاب الله الحكيم من قبل : « قل أغير الله أبغي رباً ، وهو رب كل شيء ؟ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » . صدق الله العظيم .

المؤلف